المكتبة القبطية على الانترنت
http://copticlibrary.110mb.com

البابا شنوده الثالث

حياة الرجاء

Life Of Hope

By H.H. Pope Shenouda III

حضرة صاحب القداسة والغبطة

البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

قصة هذا الكتاب

كثيرون جداً يحتاجون إلى كلمة تعيد إليهم الرجاء ... **يحتاجون إلى نافذة من نور، تبدد** الظلمة التى تكتنف نفوسهم ....

نفوسهم تصغر أمام المشاكل التى تبدو معقدة، و بلا حل ... **وتزيد حروب الشيطان من** المخاوف فى عدم حلها ...

كذلك يظنون أنه لا فكاك من الخطايا التى استمرت معهم زماناً، حتى صارت شبه مسيطرة عليهم، يكررونها فى كل اعتراف بلا توبة، مهما حاولوا التوبة ...

هؤلاء يقولون مع داود النبى ما ردده فى المزمور الثالث :

« كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه » (مز ٣).

وللأسف لا يكملون باقى المزمور وما فيه من رجاء ...

* * *

ولأهمية هذا الموضوع، ولحاجة الكثيرين إليه، تكلمت فى عظات عديدة جداً عن الرجاء و ودخل الرجاء ضمن عظات أخرى من الصعب أن أحصيها، ولذلك لما أردت أن أجمع كل ما قلته فى موضوع الرجاء، بدا الأمر صعباً ... مما تسبب فى تعطيل صدور هذا الكتاب الذى دخلت أجزاء من مقالاته فى المطبعة، وجمعت ... وانتظرت اخواتها، وطال الانتظار... وتحيرت ماذا أقدمه للطبع، وماذا أتركه أو أرجئه ؟؟

وأخيراً اكتفيت بهذه المقالات الخمس عشرة التى ضمها هذا الكتاب، حتى يمكن أن يصدر الآن. على أن نستبقى المقالات الأخرى الخاصة بالرجاء، لكى تنشر فى جزء ثانٍ، أو تضاف إلى هذا الكتاب عند إعادة طبعه بمشيئة الله.

* * *

والرجاء هو أحد الفضائل الثلاث الكبرى التى ذكرها الرسول فى (١ كو ١٣ : ١٣) .

وأعني بها : الإيمان ، والرجاء ، والمحبة .

ولقد أصدرنا لك كتاباً عن (حياة الإيمان) فى بداية الثمانينات . وها هوذا كتاب عن الرجاء . وبقى كتاب ثالث نصدره عن المحبة ... محاضراته كلها جاهزة ، لا تنقصها سوى مراجعة بسيطة وتقدم إلى المطبعة ... بصلواتك .

وبهذا تكمل المجموعة إن شاء الله .

البابا شنوده الثالث

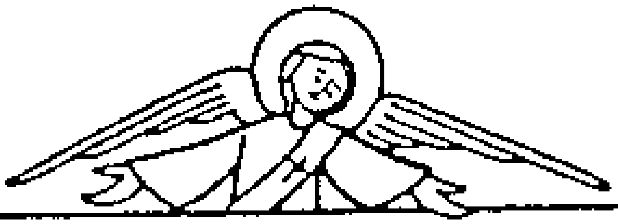

الفصل الأول

الرَّجاء

الرجاء هو احدى الفضائل الثلاث الكبرى التي ذكرها معلمنا بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى كورنثوس حيث قال.. «الإيمان والرجاء والمحبة هذه الثلاثة» (١كو١٣ : ١٣)، وهذه الثلاثة ترتبط بعضها بالبعض الآخر فالإيمان يلد الرجاء، لأن الذى يؤمن بالله، إنما يكون له رجاء فيه، والذى يكون له رجاء فى الله، يحبه وهكذا يصل **إلى قمة العلاقة بالله فى المحبة.**

* * *

الرجاء قديم قدم البشرية، بل أقدم منها، فأول رجاء عرفه البشر، هو رجاء فى الخلاص، حينما وعد الرب قائلاً لآدم وحواء «إن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية» (تك٣ : ١٥).

وظل هذا الرجاء فى قلوبهم آلاف السنين حتى تحقق أخيراً فى تجسد الرب، وفى صلبه عن البشرية.

وحتى الذين لم ينالوا هذا الرجاء، عاشوا فيه، وكما قال معلمنا بولس «لم ينالوا المواعيد، لكنهم نظروها من بعيد وصدقوها» (عب ١١ : ١٣).

وهكذا رقدوا على رجاء، إلى أن افتقدهم الرب وأرجعهم إلى الفردوس مرة أخرى.

* * *

على أن الرجاء كان موجوداً قبل آدم وحواء، فى قصة الخليقة الأولى، كان هناك رجاء لتلك الأرض الخربة الخاوية المغمورة بالمياه، وعلى وجه الغمر ظلمة (تك١ : ١).

وحقق الله لها هذا الرجاء حينما قال «ليكن نور فكان نور». ورتب الله هذه الأرض الخربة، فإذا بها فى أجمل صورة ممكنة، فيها الأشجار والأثمار والأزهار

والأطيار. ورأى الله أن كل شيء فيها حسن جداً. ولذلك مهما كانت الأرض خربة في يوم من الأيام ومهما كانت خاوية، ومهما كانت مغمورة بالمياه، ومهما كانت مظلمة، فهناك رجاء أن الله يخرج منها هذه الصورة الجميلة من الطبيعة المملوءة بالجمال التي نراها الآن.

* * *

الرجاء إذن هو شيء هام في الحياة ولو فقد الإنسان الرجاء فقد كل شيء، لأن الإنسان الذي يفقد الرجاء، يقع في اليأس، ويقع في الكآبة، وتنهار معنوياته، ويقع في القلق، والاضطراب ومرارة الانتظار بلا هدف وقد يقع بذلك ألعوبة في يد الشيطان، لذلك نقول إن الشيطان هو الذي يقطع الرجاء.

أما أولاد الله فباستمرار عندهم رجاء، يعيشون في الرجاء في كل وقت... في الضيقة يعيشون في رجاء، ومهما تعقدت الأمور، ومهما بدا أن الله قد تأخر عليهم، ومهما بدا كل شيء مظلماً، هناك رجاء.

* * *

وأولاد الله عندهم رجاء أيضاً في الحياة الأخرى، في العالم الآخر في تحقق وعد الرب من حيث ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان. هذه هي الحياة الأخرى التي نجاهد على الأرض لكي ننالها. وعلى رأى معلمنا القديس بولس الرسول «إن كان لنا رجاء في هذا العالم فقط، فنحن أشقى جميع الناس» (١كو١٥).

وهناك رجاء أيضاً حتى للخطاة في التوبة، بل أشر الخطاة على الأرض لهم رجاء.

* * *

وهناك رجاء للص وهو على الصليب في أخطر ساعات حياته. وهناك رجاء لزكا رئيس العشارين الذي كان يمثل قمة الظلم في عهده، وهناك رجاء للمجدلية التي كان فيها سبعة شياطين فإذا بها إحدى المريمات القديسات، وقد استحقت أن تكون مبشرة للأحد عشر بالقيامة. وهناك رجاء حتى للشجرة التي لم تثمر ثلاث سنوات، فقال الرب «انقب حولها وأضع زبلاً، لعلها تثمر فيما بعد» (لو١٣: ٨).

* * *

المسيحية تعطى رجاء حتى للقصبة المرضوضة وللفتيلة المدخنة .

القصبة المرضوضة قادر الله أن يعصبها ، والفتيلة المدخنة قادر الله أن يرسل لها ريحاً فتشتعل ، ولهذا من جهة الرجاء قال الرب « شجعوا صغار النفوس » . وأعطى فى ذلك رجاء حتى للركب المخلعة ، وحتى للأيدى المسترخية .

* * *

فى المسيحية يوجد رجاء للافراد ،و يوجد رجاء للهيئات ،و يوجد رجاء للكنائس و يوجد رجاء للبلاد ، و يوجد رجاء للعالم كله .

* * *

لنا رجاء فى افتقاد الرب للبشرية فى كل وقت . هذا الرجاء لا يضعف أبداً عند المؤمنين مهما بدا الأمر صعباً وكيف ذلك ؟

* * *

لقد كان هناك رجاء ليونان النبي وهو فى بطن الحوت . هل إنسان يكون فى جوف الحوت و يكون له رجاء ؟ ولكن يونان ركع على ركبتيه وصلى وهو فى جوف الحوت . وقال للرب « أعود فأرى هيكل قدسك » . كان له رجاء ، وقد تحقق .

وكان هناك رجاء حتى للثلاثة فتية وهم فى أتون النار ، ولدانيال وهو فى جب الأسود .

* * *

وكان هناك رجاء حتى للعاقر التى لم تلد ، التى قال لها الرب فى سفر اشعياء «ترنمى أيتها العاقر ، ووسعى خيامك ، لأن نسلك سيرثون أمماً و يعمرون مدناً خربة » (اش ٥٤) .

كان هناك رجاء أعطاه لنا الرب فى رمز الذين قاموا من بين الأموات .

حتى لعازر الذى قالت عنه أخته مرثا أنه قد أنتن (يو١١) قدم لنا الرب رجاء فى أن يقوم من الأموات .

* * *

وهناك رجاء قدمه الرب فى شفاء الأمراض المستعصية ... فى إعطاء البصر للعميان ، والصحة للجدع ، والعرج والمشلولين ، وكل ذى عاهة ، وصاحب اليد اليابسة ، حتى

الإنسان الذى قضى ثماني وثلاثين سنة إلى جوار البركة لا يجد من يلقيه فيها، كان له رجاء أن يأتى له المسيح و يقول له «قم احمل سريرك وامش» (يو٥).

مهما كان الأمر مستعصياً، ومهما كان الأمر صعباً، ومهما بدا للناس معقداً، هناك رجاء يقدمه الله.

ولعل الرب أعطانا مثالاً جيلاً فى هذا حينما قال «غير المستطاع عند الله» بل صدقونى هناك آية أعمق من هذه جداً، وهى قول الكتاب «كل شيء مستطاع للمؤمن».

* * *

عبارة «كل شيء مستطاع» (مر ٩ : ٢٣) تعطينا رجاء لا حدود له.

وهكذا يقول بولس الرسول فى الرجاء «استطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى» (فى ١٤ : ١٣). عبارة كل شيء هى مدى أوسع جداً يعطينا فكرة أنه لا حدود للرجاء، مادام لا حدود لقدرة الله ولمحبته.

إذاً لا حدود للرجاء فى المسيحية.

والإنسان المسيحى يجد اختباراً لفضيلة الرجاء فيه، حينما يقع فى ضيقة أو فى تجارب متنوعة، أو فى آلام صعبة، أو فى مشاكل تبدو لا حلول لها، يعرف بالرجاء أن الرب عنده حلول كثيرة، وأن الرب لابد أن يأتى مهما بدا أمام الناس أنه قد تأخر.

* * *

صدقونى أننى فى بعض الأحيان كنت أعاتب أبى ومعلمى القديس داود النبى، حينما كان يقول للرب «اسرع ولا تبطىء».

لأن الرب يا اخوتى ليس عنده اسراع ولا ابطاء. الله يعمل، و يعمل فى كل حين، وهو لا يتأخر مهما ظن التلاميذ أنه قد مر الهزيع الرابع من الليل ولم يأت بعد. الرب لابد سيأتى، إذا كان عندنا إيمان، نؤمن أن الله لابد سيعمل وسيعمل بقوة، وسيعمل فى الوقت المناسب.

أما عبارة التأخير، فهى تحمل مفهوماً نسبياً عند البشر، يظنون أنه قد تأخر، ولكن

مواعيد الله هي هي، تحددها حكمته، وتحددها رؤيته الصادقة للأمور على حقيقتها.

فالله يعمل باستمرار، وإن ظننا في وقت من الأوقات أنه قد تأخر، يقول لنا المرنم في المزمور «انتظر الرب، تقو ليتشدد قلبك، وانتظر الرب» (مز ٢٧ : ١٤).

* * *

وهنا نعرف معنى الرجاء على حقيقته ...

إن الإنسان يرجو الرب وينتظر الرب، ليس في قلق، ولا في ضجر، ولا في تذمر، ولا في شك.

ولكن ينتظر الرب، وقد تشدد قلبه، هو قوى القلب في الداخل، قوى بالإيمان أن الرب يعمل، لا أقول أن الرب سيعمل، فهذا مستوى ضعيف. وإنما أقول أن الإنسان يكون عنده رجاء أن الرب يعمل فعلاً.

أنت لا تؤمن أن الله سيعمل في المستقبل، وإنما ينبغي أن تؤمن أن الله يعمل حالياً. ولذلك يكون عندك رجاء، فيما لا تراه من عمل الله، ولكن توقن تماماً وتثق أن الله يعمل. إن الطائرة قد تبدو لمن يستخدمها لأول مرة أنها واقفة في الجو، بينما تكون في سرعة أكثر من ثمانمائة كيلومتراً في الساعة، ولكنها تبدو واقفة! وبعض المراوح الشديدة الحركة تبدو متوقفة، وهي تكون في أقوى درجة من السرعة، وكذلك الكثير من الأجهزة.

* * *

الله يعمل، أنت لا تراه يعمل لكن تؤمن بذلك، ويكون لك رجاء بنتيجة عمله التي ستراها بعد حين.

في الضيقات ... الإنسان الذي يرجو الله ينفعه قول المزمور «إن يحاربني جيش فلن يخاف قلبي، وإن قام على قتال ففي هذا أنا مطمئن».

ولماذا هو مطمئن؟ لأنه يرجو عمل الله فيه، ويرى كما كان أليشع يرى، أن هناك جيوش الرب تحارب حول المدينة «وأن الذين معنا أكثر من الذين علينا» (٢مل ٦ : ١٦).

ويقول مع المرنم «نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين، انفخ الكسر ونحن نجونا» (مز ١٢٤).

* * *

الإنسان الذى عنده رجاء، لا ينظر إلى الضيقات، إنما ينظر إلى الله الذى ينتصر على الضيقات. الذى قال «أنا قد غلبت العالم» ويظل فيه هذا الرجاء إلى آخر نسمة، فى كل حين، فى كل حال، فى كل موقف، الرجاء لا يفارقه.

وهذا الرجاء يعطى الإنسان سلاماً فى القلب، طمأنينة فى الداخل، فرحاً قلبياً على أساس، ولهذا يقول الرسول فى الاصحاح الثانى عشر من رسالته إلى رومية «فرحين فى الرجاء» (رو١٢).

* * *

الرجاء بأن الله لا يعسر أمر عليه وأنه قادر على كل شيء، الرجاء فى محبة الله وفى مواعيد الله، الرجاء فى الله الذى قال «لا أهملك ولا أتركك» الله الذى قال «ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر» الذى قال «نقشتكم على كفى» الذى قال «إن أبواب الجحيم لن تقوى عليها.. الرجاء فى الله الذى عمل فى القديم، والذى يعمل كل حين، الذى نقول له مثلما قالوا فى القديم قم أيها الرب الإله وليتبدد جميع أعدائك، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضى اسمك القدوس».

الله الذى غلب العالم، نرجوه أن يغلب العالم أيضاً مرة أخرى، يغلب الالحاد الذى فى العالم يغلب الاباحية والمادية، ويغلب الحقد والكراهية التى فى العالم، ويغلب الانقسام والتفكك الذى فى العالم ويغلب العنف واستخدامه الذى فى العالم.

* * *

هذا هو الإله الذى نرجوه، الذى يعيد الأرض إلى صورتها الأولى. وأيضاً الله الذى يقف إلى جوار أولاده باستمرار، الذى رآه يوحنا فى رؤياه وهو «فى وسط المنائر السبع، وفى يمينه ملائكة الكنائس السبع» (رؤ١ : ٢٠).

فالله مايزال وسط أولاده، وفى يمينه رعاة الكنائس وقادتها، وهو يقول لنا أغنيته الجميلة «لا يخطف أحد من يد أبى شيئاً» (يو١ : ٢٩).

* * *

لنا رجاء فى الله الذى قال عنه يوحنا الحبيب فى رؤياه :

« أبصرت وإذا باب مفتوح فى السماء » (رؤ ٤ : ١) .

فالإنسان الذى يعيش فى الرجاء ، باستمرار ينظر باباً مفتوحاً فى السماء و يرى الله واقفاً فى هذا الباب يقول إنه يفتح ولا أحد يغلق » (رؤ٣ : ٧) .

* * *

الله الذى يسعى لخلاصنا ، دون أن نسعى نحن ، والذى يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا ، والذى يعرف الخير لنا ، أكثر مما نعرف الخير لأنفسنا الله ضابط الكل الذى يقود الكون كله والذى حياة العالم كله فى يديه . هو يدبر الأمور حسب حكمته التى لا تحد ، نحن نرجو هذا الإله ، ونحن نغنى مع الرسول قائلين :

* * *

« كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله » (رؤ٨ : ٢٨) . ونقصد الخير بالمقاييس الإلهية وليس الخير بمفاهيمنا البشرية . الله هذا صانع الخيرات ، هو الذى نرجوه . وهو الذى نعلق كل رجائنا عليه . وهو الذى نقول له فى بعض صلوات القداس الإلهى « يا رجاء من ليس له رجاء . معين من ليس له معين » . ونقول فى المزمور « الاتكال على الرب خير من الاتكال على البشر ، الرجاء ، بالرب خير من الرجاء بالرؤساء » (مز١١٨) .

* * *

الرجاء فى مواعيد الله الصادقة والرجاء فى الحياة الأبدية الجميلة ، فى القيامة السعيدة ، الرجاء الذى نعلقه لا فى أمور العالم ، وإنما فى ذلك الوطن السماوى ، « المدينة التى لها الأساسات التى صانعها و بارئها الرب » (عب ١١) .

الإيمان فى حياة أخرى جديدة لا تعرف خطية ، ولا تعرف إثماً ، الإيمان فى التجديد العجيب الذى نناله فى السماء ، حيث ترجع إلينا الصورة الإلهية الأولى ، وفى وضع لا يخطىء فيما بعد ، الرجاء فى الحرية التى ننالها من الرب ، بحيث تكون حرية تفعل الخير فقط ، ولا تعود تعرف الخطية بعد ، الإيمان بملكوت الله الذى نعيش فيه فى ذلك الأبد ، ونعد أنفسنا له من الآن .

هذا هو الرجاء الحقيقى الذى نرجو فيه ما لا يرى ، لأن الأشياء التى ترى تدخل فى العيان ، وليس الرجاء . إنما نحن نرجو ما ننتظره بالصبر ، وليس ما نراه كما يقول الرسول « هذا الرجاء المفروض أن ندعو الجميع إليه » .

* * *

المفروض أن نقول لكل أحد : إن كل باب مغلق له ألف مفتاح ، والله يستطيع أن يفتح جميع الأبواب المغلقة . ونقول له إن كل ظلمة لابد بعدها نور ، وكل مشكلة لها حل أو عشرات الحلول وكل ضيقة لها إله هو إلهنا الصالح الذى يخرج من الجافى حلاوة ، ومن الآكل أكلاً . والذى يحول كل الأمور إلى الخير، كل الأمور التى تمر بنا فى حياتنا إن كانت خيراً ستصل إلينا خير وإن كان شراً فالله صانع الخيرات يحول الشر إلى خير.

* * *

لذلك نحن نعيش فى الرجاء فرحين باستمرار. السلام يملأ قلوبنا ، لأننا لا نعتمد على ذواتنا ولا على وسائط عالمية ، إنما نعتمد على الله الذى يعمل كل خير.

فى هذا الرجاء أحب أن نعيش جميعاً ، ككنيسة ترجو ملكوت الله وتنتظره ، وترجو عمل الله فيها فى كل حين ، ونؤمن بعمله ، وكعالم واسع الأرجاء فى كل قاراته ، يرجو من الله أن يسود السلام فى كل مكان و يسود الخير فى كل مكان ، و يرجع الحب إلى قلوب الناس جميعاً ، فيرتبطون به ، و يعيشون به وكما قال المسيح « بهذا يعرف الناس أنكم تلاميذى إن كان لكم حب بعضكم نحو بعض » .

هذا الرجاء إن لم يكن فينا فلنطلبه كعطية مجانية من الله ، الذى يملأ القلوب بسلامه و برجائه . له المجد الدائم من الآن وإلى الأبد آمين ...

* * *

حياة الرجاء يلزمها الثقة

حياة الرجاء يلزمها الثقة فى الله ، والثقة فى مواعيده ، وفى عمله وفى محبته لك وللكل ، وفى حكمة تدبيره .

لكي يمتلىء قلبك بالرجاء ، ينبغي أن تثق بأن الله يحبك أكثر مما تحب نفسك ، وأنه يعرف ما هو الخير لك أكثر مما تعرف أنت بما لا يقاس . وأن كل تدابير الله من جهتك هي فى عمق الحكمة والخير، مهما بدت لك غير ذلك من خلال الشك...

* * *

ولا بد أن تعلم أنك فى يد الله وحده ، ولست فى ايدى الناس ، ولا فى ايدى التجارب والأحداث ، ولا فى أيدى الشياطين...

أنت فى يد الله وحده . والله قد نقشك على كفه (إش ٤٩ : ١٦) . وقد يظلل عليك بجناحيه (مز ٩٠) ويحرسك الليل والنهار، ويحفظ دخولك وخروجك (مز ١٢٠) . ومن محبته لك ، دعاك ابناً له (١ يو ٣ : ١) . وهو الراعى الذى يرعاك فلا يعوزك شىء (مز ٢٣ : ١) . نحن كلنا شعبه وغنم رعيته . ولا يمكن لله كراعٍ صالح أن يغفل عن غنمه . ولا يمكن له كأب أن يغفل عن أولاده .

* * *

أما إن كانت لديك مشكلة ، فيريحك جداً أن تنتظر الرب . ولا بد أنه سينقذك منها . فهذه نصيحة مباركة يقدمها لنا أحد مزامير صلاة باكر، يقول فيها المرتل :

« انتظر الرب . تقوّ وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز٢٦ [٢٧]) .

والنصيحة التى يقدمها لنا هذا المزمور ، ليس مجرد أن ننتظر الرب ، وإنما أن ننتظره فى قوة ، ونحن متشددون فى الداخل...

لا ننتظر الرب فى ضيقة ، أو فى ضجر وتذمر واحتجاج : لماذا لم يعمل الرب حتى الآن ؟ أين محبته ؟ أين عمله ؟! . ولا ننتظر ونحن نشك فى عمل الله ، أو نشك فى قيمة الصلاة وفاعليتها !! ولا ننتظر الرب فى ضعف داخلى ، وفى انهيار، وقد فقدنا معنوياتنا !! كلا ، فكل هذه المشاعر ضد فضيلة الرجاء... فالإنسان المضطرب أو اليائس أو الخائف أو المنهار، يدل على أنه فاقد الرجاء... لأن الذى ينتظر الرب فى رجاء ، إنما يمنحه الرجاء قوة . وكما قال إشعياء النبى :

« وأما منتظرو الرب ، فيجددون قوة . يرفعون اجنحة كالنسور . يركضون ولا يتعبون . يمشون ولا يعيون » (إش ٤٠ : ٣١) .

فما معنى عبارة « يجددون قوة » ؟ معناها انه كلما حاربهم الشيطان بالقلق أو بالضعف والاضطراب ، تتجدد القوة فيهم من تذكرهم لمواعيد الله الصادقة ، وصفاته الإلهية المحبوبة باعتباره الأب والراعى والحافظ والساتر والمعين ... الله الحنون ، المحب ، صانع الخيرات ، الذى لا يغفل ولا ينام ... فكلما يتذكرون صفة من هذه الصفات تتجدد القوة فيهم ، و يرفعون أجنحة كالنسور.

إن منتظر الرب يثق ثقة لا تحد بمحبة الله الفائقة للبشر ، وبحكمة الله التى هى فوق ادراكنا البشرى ...

★ ★ ★

يثق ان الله يعطينا باستمرار دون أن نطلب ، وقبل أن نطلب . فكم بالحرى إن طلبنا ... وهو يثق أيضاً أن الله يعطينا ما ينفعنا ، وليس حرفية ما نطلبه . لأنه ربما تكون بعض طلباتنا غير نافعة لنا ... وهنا تظهر حكمة الله فى محبته ...

لذلك فى حياة الرجاء ، لا بد أن تثق بحكمة الله فى تدبيره لحياتك

لا تطلب وتصرّ. إنما اطلب وقل : لتكن مشيئتك ...

وحينما تقول : « لتكن مشيئتك » ليكن ذلك بفرح ، بغير ألم ولا حزن.

★ ★ ★

هناك أمور كثيرة لا تدريها . وهى معروفة ومكشوفة أمام الله .

ربما الذى تطلبه ، لا يكون مناسباً لك ولا نافعاً لك . وربما الوقت الذى تحدده ، يعرف الله تماماً أنه غير صالح ، و يرى أن تأجيل الاستجابة أفضل ... لذلك تواضع ، واترك لحكمة الله أن تتصرف . وانتظر الرب فى ثقة ...

أليس من المخجل أننا نثق بذكائنا وفطنتنا أكثر مما نثق بالله !

إننا نضع حلولاً للأمور ، واثقين أنها أفضل الحلول ، أو أنها الوحيدة النافعة . وربما يكون فى ذهن الله حلّ آخر لم يخطر لنا على بال ، هو أفضل بما لا يقاس من كل تفكيرنا . ليتنا إذن نثق بالله ... وننتظر حله فى رجاء .

★ ★ ★

أمور تساعد على الثقة

وكما نثق بمحبة الله وحكمته ، نثق أيضاً بمواعيده المليئة بالرجاء ...

نثق بوعده الصادق « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) . نثق بقوله « لا تخف لانى معك » (تك ٢٦ : ٢٤) « لا أهملك ولا أتركك . تشدد وتشجع » « لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك » (يش ١ : ٥ ، ٦) « تشدد وتشجع . لا ترهب ولا ترتعب ، لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش ١ : ٩) « لا تخف أيها القطيع الصغير » (لو ١٢ : ٣٢) « ... أنا معك ، ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) « يحاربونك ولا يقدرون عليك ، لانى أنا معك - يقول الرب - لأنقذك » (أر ١ : ١٩) .

★ ★ ★

وما أكثر عبارات الرجاء التى تحفل بها المزامير ...

ليتك تجمع هذه الآيات وتقرأها أو تتذكرها كلما كنت فى حاجة إلى الرجاء فى حياتك . يكفى أن تسترجع مثلاً مزمور ٩٠ (٩١) أو ١٢٠ (١٢١) حيث يقول لك الوحى الإلهى : « يسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك . بل بعينيك تتأمل ، ومجازاة الخطاة تبصر » « لأنه يوصى ملائكته بك ليحفظوك فى سائر طرقك ... » « تطأ الأفعى وملك الحيات ، وتسحق الأسد والتنين ، لأنه علىَّ اتكل انجيه . أستره لأنه عرف اسمى » (مز ٩٠) « لا يسلم رجلك للزلل ... الرب يحفظك » « الرب يحفظك من كل سوء . الرب يحفظ نفسك . الرب يحفظ دخولك وخروجك » (مز ١٢٠) .

كلها آيات تبعث الرجاء فى النفس ، وتقوى القلب فى الداخل

★ ★ ★

ويزيد الرجاء فيك أيضاً ، تذكرك معاملات الله لقديسيه ...

إن تذكرت كل هذا ، يمتلىء قلبك بالرجاء ، وتنتظر الرب فى ثقة .

الفصل الثانى

كل الأشياء تعمل معاً للخير

(رو ٨ : ٢٨)

من محاضرة القيت فى الكاتدرائية يوم الجمعة ٢٠/٢/٧٦ .

كثير من الناس تمر عليهم التجارب والضيقات، فتعصرهم عصراً، ويقعون فى الكآبة الشديدة، وربما فى اليأس. وهؤلاء يريحهم قول الكتاب:

« كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الرب » (رو٨: ٢٨).

والكتاب المقدس حافل بقصص كثيرة معزية فى هذا المجال:

قصة يوسف الصديق

إنسان يقسو عليه اخوته، ويلقونه فى بئر، ثم يبيعونه كعبد لتجار من الاسماعيليين. وبعد أن يخلص لسيده كل الاخلاص، وينجح فى عمله جداً، تلفق ضده تهمة رديئة من امرأة سيده، ويلقى فى السجن. وتطول به الأيام فى سجنه...

ولكن كل هذه الأمور، كانت تعمل للخير.

فلولا التهمة التى أوصلته إلى السجن، ما كان خبره يصل إلى فرعون، فيجعله وزيره الأول، والثانى فى المملكة.

وطبعاً لولا قسوة اخوته، ما كان قد بيع إلى بيت فوطيفار. ولولا أن امرأة فوطيفار كانت خاطئة، ما كانت تشتهيه، ثم تلفق له التهمة التى أوصلته إلى السجن. ولولا سجنه ما كان قد تعرف على رئيس سقاة فرعون الذى أخبر فرعون بقدرته على تفسير الأحلام، فاستدعاه فرعون. وخرج من السجن إلى المملكة (تك ٣٩- ٤١).

* * *

وبدون كل هذا، ما كان اخوته قد تابوا، وبكوا، واعترفوا بخطيئتهم، وعادت المحبة إلى الأسرة، ونجوا من المجاعة، واجتمعوا كلهم فى مصر...

المشكلة أن الناس تحصرهم المشكلة، ولا يكون لهم الرجاء فى أنها ستؤول إلى الخير.

يقفون عند البداية التى تبدو سيئة أو مؤلمة ، ولا يتابعون العمل الإلهى ، الذى يحوّل الشر إلى خير، والذى يخرج من الجافى حلاوة (قض ١٤ : ١٤) .

لاشك أن قصة يوسف الصديق ، هى درس فى الرجاء، وفى أن كل الأشياء تعمل معاً للخير.

نتدرج إلى نقطة أخرى تبدو غريبة وعجيبة ، وهى :

خطيـة آدم

إنها خطية ، جرت على العالم ما لا يحصى من الكوارث . وبها دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت (رو٥ : ١٢) .

ومع ذلك ، فإن الله الذى يخرج من الجافى حلاوة، استطاع أن يجعل كل الأمور تعمل معاً للخير.

وكنتيجة لذلك عرفنا عملياً محبة الله لنا (يو٣: ١٦). وبركات الكفارة والفداء.

ولو كان آدم لم يخطىء، لبقى فى الفردوس. فى جنة يأكل فيها ويشرب، ويعيش مع الحيوانات والطيور والأسماك... أما الآن، فقد صار لنا الملكوت بكل ما يحمل من بركات غير مرئية ، فيها ما لم تره عين، وما لم تسمع به أذن، وما لا يخطر على قلب بشر» (١كو٢ : ٩) .. ولنا فيه عشرة الملائكة القديسين...

وهذا يذكرنا بنقطة أخرى عجيبة وهى :

المـوت

كل الناس يكرهون الموت ، ويرونه سبباً للحزن! ويلبسون لأجله السواد، ويقابلونه بالدموع والبكاء... ولكنه أيضاً من الأمور التى تعمل للخير...

فالموت هو الطريق إلى حياة أفضل، وإلى مستوى أعلى ستؤول إليه البشرية ...

حيث فى القيامة، سنقوم بأجساد نورانية روحانية، نقام فى مجد بأجساد سماوية يمكنها أن ترث الملكوت (١كو١٥)... ولولا الموت لبقينا فى هذا الجسد المادى... أليس الموت أيضاً يعمل معاً للخير.

فلنتأمل قصة القديس الأنبا أنطونيوس، وموت أبيه.

كان موت أبيه درساً عميقاً له فى فناء الحياة الدنيوية وبطلانها. ولقد نظر الشاب أنطونيوس إلى أبيه الميت، وقال له «أين هى عظمتك وسلطانك؟! لقد خرجت من الدنيا على الرغم منك. ولكنى سأخرج منها بارادتى، قبل أن يخرجونى مثلك كارهاً»... وكانت بداية الحياة الرهبانية...

الأمراض

المرض آفة يحاربها الناس. ويهربون منها إلى الطب والدواء.. ومع ذلك فإن الأمراض «تعمل معاً للخير، للذين يحبون الرب» (رو٨: ٢٨)...

أمراض كثيرة قادت إلى التوبة، وفعلت ما لم تفعله أعمق العظات ...

وبخاصة الأمراض الخطيرة والمؤلمة.. كم قد أدخلت كثيرين فى عهود مع الله، وفى نذور قدموها إلى الله، وفى حياة جديدة مع الله، أو أدخلتهم فى توبة واستعداد للموت... وهكذا كانت تعمل معاً للخير.

* * *

وأمراض قادت الناس إلى الصلاة وإلى الصوم.

وإلى زيارة الأماكن المقدسة، والتشفع بالملائكة والقديسين، وإلى إقامة القداسات، والقيام بأعمال الرحمة نحو الفقراء والمساكين.

وهكذا كما استفاد المريض نفسه اقتراباً إلى الله، استفاد أيضاً أقاربه ومحبوه فوائد روحية عديدة...

بل الأمراض كانت نافعة للقديسين، لإشعارهم بضعفهم ومنع المجد الباطل عنهم.

وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول «ولكى لا ارتفع بفرط الإعلانات، أعطيت شوكة فى الجسد. ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا أرتفع» (٢كو١٢ : ٧).

وقد صلى بولس ثلاث مرات، ليشفيه الله من ذلك المرض. ولكن الله قال له «تكفيك نعمتى». واستبقى مع بولس هذه الشوكة التى فى الجسد، لأنه -تبارك اسمه- كان يعرف كم تعمل مع قديسه للخير، وكم تجلب له من اتضاع قلب...

وقصة القديس بولس مع المرض، تذكرنا بيعقوب أبى الآباء.

لقد صارع مع الله وغلب (تك ٣٢ : ٢٨)، ونال البركة. ومع ذلك ضرب الله حق فخذه فانخلع. وظل يخمع على فخذه (تك ٣٢ : ٢٧، ٣١). وبقى هذا المرض معه، كعطية من الله، يعمل معه للخير، ويهبه الاتضاع إذ يشعر بضعفه، لئلا يرتفع قلبه بسبب أنه نال البركة، وأنه صارع مع الله وغلب...

تجربة أيوب

لعل إنساناً يسأل: لماذا هذه التجربة تحل على إنسان قديس، **شهد له الله مرتين**، بأنه «رجل كامل ومستقيم، وليس مثله فى الأرض» (أى ١ : ٨) (أى ٢ : ٣)...

والحقيقة أن هذه التجربة كانت للخير من عدة نواح:

★ كانت التجربة لخير أيوب، أوصلته إلى الإتضاع.

كان محارباً بشىء من المجد الباطل... كان باراً، ويعرف عن نفسه أنه بار. ولهذا قال «لبست البر فكسانى. كجبة وعمامة كان عدلى» (أى ٢٩ : ٩). وقيل عنه إنه «كان باراً فى عينى نفسه» (أى ٣٢ : ١)... فكانت التجربة لازمة له، لتعمل معه للخير، توصله إلى انسحاق القلب، وإلى معرفة الله. ولما وصل إلى عبارة «أندم فى التراب والرماد» (أى ٤٢ : ٦)... رفع الله عنه التجربة.

⋆ **وكانت التجربة نافعة لأصحاب أيوب الثلاثة :**

ذلك لأنهم كانوا «معزين متعبين» (أى ١٦ : ٢). وقد استذنبوا أيوب وأساءوا إليه (أى ٣٢ : ٣). وحتى من جهة الله، لم يتكلموا عنه بالصواب (أى ٤٢ : ٨). فكانت التجربة لازمة لهم، لتصحيح مفاهيمهم الروحية. وقد قادتهم إلى التوبة «واصعدوا محرقات لأجل أنفسهم» (أى ٤٢ : ٧).

⋆ ⋆ ⋆

⋆ **وكانت التجربة نافعة للعالم كله.**

تلقى بها العالم درساً فى الصبر، كما قال القديس يعقوب الرسول «خذوا يا اخوتى مثالاً لاحتمال المشقات والأناة... ها نحن نطوّب الصابرين. قد سمعتم بصبر أيوب، ورأيتم عاقبة الرب..» (يع ٥ : ١٠، ١١).

⋆ ⋆ ⋆

⋆ **وحتى تجربة أيوب، من الناحيتين العائلية والمادية، كانت نافعة له.**

فقد «زاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفاً... وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه» (أى ٤٢ : ١٠، ١٢). أعطاه الرب ضعف ما كان له من الخيرات المادية. ووهبه الرب بنين وبنات «ولم توجد نساء جميلات، كبنات أيوب فى كل الأرض» (أى ٤٢ : ١٥). ووهب الرب أيوب عمراً طويلاً، «فعاش بعد التجربة ١٤٠ سنة، ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال»...

وهكذا كانت التجربة لخيره، لما احتملها.

⋆ ⋆ ⋆

وكانت تجربة أيوب خجلاً للشيطان.

أو كانت هزيمة جديدة له، لأن الشيطان قد لا يخجل من أخطائه. لذلك نقول كانت هذه التجربة سبب خزى له. فتعبير «خزى» أكثر موافقة للمعنى...

وهكذا كانت تجربة تعمل معاً للخير لكل الأطراف...

⋆ ⋆ ⋆

التجارب عموماً

يخاف البعض من التجارب ، وقد يضطرب لها . بينما يقول الرسول :

« احسبوه كل فرح يا اخوتي، حينما تقعون فى تجارب متنوعة « (يع ١ : ٢).

المسألة تحتاج إلى ثقة فى عمل الله معنا أثناء التجربة ، وكيف يجعلها تؤول إلى خيرنا . وهنا نرى القديس يعقوب الرسول ، لا يدعونا فقط إلى الاحتمال والصبر، وإنما بالأكثر يدعونا إلى الفرح بالتجارب .

وهكذا ندخل فى حياة الفرح الدائم . فى النعمة نفرح ، وفى التجربة أيضاً نفرح . ونقول :

المر الذى يختاره الرب لى ، خير من الشهد الذى اختاره لنفسى ...

نقول كل طرقك يارب ، بحكمة قد صنعتها ... كله للخير ...

* * *

هيرودس أراد أن يقتل المسيح وهو طفل ،
فصار هذا خير لمصر لما جاءها المسيح .

بارك الرب أرض مصر ، وصارت لنا مقادس فيها . وسقطت كثير من الأصنام (اش ١٩ :١٩-٢٢)وكانوا حينما يطردون العائلة المقدسة من بلد بسبب سقوط الأصنام ، تذهب إلى بلد مصرى آخر. فكثرت البلاد التى تقدست بزيارة العائلة المقدسة لمصرنا ، وصار ذلك تمهيداً لانتشار الإيمان المسيحي فيها ...

بتذكرنا لكل هذا ، نسعد بكل ما يحدث لنا ، مؤمنين أنه :

إن لم يكن الأمر خيراً فى ذاته

فلابد سيكون خيراً فى نتيجته

* * *

خذوا كمثال : متاعب داود من شاول الملك .

لقد طارده من مدينة إلى مدينة ، ومن برية إلى أخرى . وعاش بسببه هارباً فى البرارى والقفار ، يترصده الموت فى كل خطوة . ولكن كل ذلك التعب أعده لتحمل مسئوليات المُلك فيما بعد . إذ نضج داود سناً وشخصية . وصار جبار بأس ، كثير الاحتمال .
يعرف كيف ينتظر الرب بإيمان و يؤمن بتدخله .

والضيقات التى احتملها ، صارت نبعاً لمزاميره .

يغنيها على العود والقيثار والمزمار . وصارت ينبوعاً لتأملات روحية وصلوات عميقة ، تصليها الأجيال من بعده . وترى فيها كيف يختلط الطلب بالشكر بالإيمان... وأعطانا اسلوباً نصلى به ونحن فى وقت الألم والضيقة . وصار داود رجل صلاة ، صقلته التجارب ، وصاحب خبره بالعشرة مع الله .

ولو عاش داود مدللاً ، ترى ماذا كانت شخصيته ستكون ؟!

* * *

الضيقات لو لم تنتهِ إلى خير على الأرض ، فعلى الأقل ستعد لنا أكاليل يهبها لنا فى ذلك اليوم الديان العادل .

* * *

إن الضيقات هى مدرسة للصلاة .

ربما حياة التنعم تبعدنا عن الله . أما حياة الألم فإنها تقربنا إليه . فتصير صلواتنا أعمق وأكثر ، وتصير أصوامنا أكثر روحانية . كما نقترب إلى الله بالتوبة والمصالحة معه ، فنرجع إليه .

إن الضيقة التى وقع فيها اخوة يوسف ، جعلتهم يتذكرون خطيئتهم إليه « وقالوا بعضهم لبعض : حقاً إننا مذنبون إلى أخينا ، الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع له . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة... فهوذا دمه يُطلب (منا) » (تك ٤٢ : ٢١ ، ٢٢) .

* * *

حتى سقوط الناس فى الخطية ، كان يؤول بالتوبة إلى خير.

عاش أوغسطينوس فى الخطية زماناً طويلاً ، بكت عليه فيه أمه القديسة مونيكا ... ثم تاب أوغسطينوس ، وكان من نتائج حياته الأولى كتابه الرائع عن اعترافاته ، وهو كنز روحى ، وسبب منفعة روحية للملايين ، يعرفنا كيف يعترف الإنسان علناً ، ويعترف حتى بخطاياه وهو طفل أو رضيع ...

* * *

وبالمثل يمكن أن نتحدث عن خطية داود النبى .

كيف أوصلته الخطية إلى حالة عجيبة من انسحاق النفس ، قال فيها « ابلل فى كل ليلة سريرى . بدموعى ابل فراشى » (مز ٥٠) . وكيف اعترف إلى الرب قائلاً « لك وحدك أخطأت ، والشر قدامك صنعت ... قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده فى أحشائى » ... إلى آخر ما حواه المزمور الخمسون ، مزمور التوبة ، وما حوته باقى مزاميره من مشاعر الانسحاق ...

كان ملكاً عظيماً ، محترماً ومبجلاً من الكل . ولكن الخطية أذلته ، فقال :

« خير لى يارب أنك أذللتنى ، حتى أتعلم وصاياك » (مز ١١٩) .

وحينما أهانه شمعى بن جيرا إهانة مؤلمة ، وهو هارب من أبشالوم ، لم يسمح لأنصاره أن ينتقموا من هذا الإنسان ، بل قال فى اتضاع « دعوه يسب . لأن الرب قال له : سب داود ... لعل الرب ينظر إلى مذلتى » (٢صم ١٦ : ١٠) .

* * *

وبالمثل ما استفاده خاطىء كورنثوس من خطيئته وعقوبته .

كم أوجد فيه ذلك من الحزن والبكاء ، حتى أن القديس بولس الرسول فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس ، أمرهم أن يمكنوا له المحبة « لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط » (٢كو ٢ : ٧) ... وكان درساً لغيره ، ودرساً للمدينة كلها فى أن « يعزلوا الخبيث من وسطهم » (١كو ٥ : ١٣) .

* * *

سقوط إنسان فى خطية، تدعوه إلى الشفقة على الذين يسقطون.

لأنه قد أدرك بالخبرة، قوة حروب الشياطين، وسهولة السقوط فى الخطية التى «طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء» (أم ٧: ٢٦). ولذلك يقول القديس بولس الرسول «اذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم، والمذلين كأنكم أنتم أيضاً فى الجسد» (عب ١٣: ٣).

* * *

والسقوط أيضاً يكشف للإنسان ذاته وضعفه.

وهذا يؤول إلى الخير، إذ يجعله يكون أكثر حرصاً وتدقيقاً فى المستقبل، و يبعد عن التهاون. كما أن اكتشاف ضعفه يعطيه فرصة للرد على كل فكر كبرياء أو افتخار يحاربه فيما بعد.

* * *

لذلك عيشوا باستمرار فى بشاشة وفرح.

«افرحوا فى الرب كل حين» (فى ٤: ٤).

فى كل ما يحدث لكم قولوا: إننا تحت رعاية الله محب البشر، الله الذى يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا، والذى يعرف خيرنا أكثر مما نعرفه... الله الذى يسخر جميع الأمور لكى تعمل من أجل خيرنا... الذى جعل قوانين الطبيعة أيضاً تعمل معاً للخير، والذى خلق الحيوانات والطيور والنباتات أيضاً لأجل خيرنا. وخلق الهواء والشمس والقمر والنجوم من أجلنا... كلها تعمل معاً للخير، من أجل راحتنا وسعادتنا.

* * *

فلنشكر الله الذى جعل كل الأشياء تعمل معاً للخير، لأجلنا.

الله صانع الخيرات، الذى قيل عن ملائكته «أليسوا جميعاً أرواحاً خادمة، مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١: ١٤). ولأجلنا أيضاً عين الرب رتباً فى الكنيسة «أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلمين. لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح» (أف ٤: ١١، ١٢).

* * *

عش سعيداً مهما حدث لك . قل : كله للخير .

بهذا يكون إنسان الله خالياً من كل الأمراض النفسية . خالياً من الكآبة، والاضطراب ، والحزن السيء ، والتعقيد، واليأس ... بل باستمرار يملك السلام على قلبه ... السلام القائم على الإيمان بالله وعمله ...

* * *

ولكن كل ذلك على شرط واضح فى الآية ، وهو « كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الرب » (رو٨ : ٢٨) .

إذن الشرط هو : أن تكون ممن يحبون الرب .

لأن هناك أناساً لا تعمل الضيقات معهم للخير: بل ربما الضيقة تسبب له ألواناً من التذمر والتعب والتجديف واليأس .

هناك أناس لا يحبون الرب المحبة التى تجعلهم يثقون به وبمواعيده وبتدخله وبحلوله . ليس لديهم الإيمان الكافى ، لذلك تعصرهم الضيقة ، وتجعل نفوسهم متأزمة معقدة ، تعيش فى رعب المشكلة ، وليس فى حلها .

* * *

كلمات فى الرجاء

ليتنا بدلاً من أن ننظر إلى الحاضر المتعب الذى أمامنا ، ننظر بعين الرجاء إلى المستقبل المبهج الذى فى يد الله .

★ ★ ★

كل مشكلة تبدو معقدة أمامنا ، لها عند الله حلول كثيرة .

وكل باب مغلق ، له فى يد الله مفتاح بل مفاتيح عديدة ...

هو الذى يفتح ولا أحد يغلق (رؤ ٣ : ٧) .

★ ★ ★

الرجاء يمنع الخوف ، ويمنع القلق والاضطراب ، ويبعث الاطمئنان .

بل أننا نكون « فرحين فى الرجاء » (رو ١٢ : ١٢) .

★ ★ ★

لا ننظر إلى المتاعب مجردة ، بدون عمل الله ، الذى يقدر أن يحول الشر إلى خير...

★ ★ ★

الله قادر أن يحول كل مجريات الأمور ، فى اتجاه مشيئته .

★ ★ ★

الذى لا يستطيعه الضعف البشرى ، تقدر عليه قوة الله .

والذى لا تستطيعه حكمة الناس ، تقدر عليه حكمة الله .

★ ★ ★

ثق أنك لست وحدك . أنت محاط بمعونة إلهية .

وقوات سمائية تحيط بك ، وقديسون يشفعون فيك .

الفصل الثالث

تعالوا إلىّ
يا جميع المتعبين
والثقيلى الأحمال
وأنا أريحكم

(متى ١١ : ٢٨)

من محاضرة القيت فى الكاتدرائية يوم الأربعاء ١٥/١٠/٨٦ .

كل إنسان فى الدنيا له متاعبه الخاصة ، سواء كانت متاعب ظاهرة للآخرين ، أو مكتومة فى القلب ، سواء كانت متاعب روحية ، أو متاعب نفسية ، أو متاعب جسدية ، أو متاعب عائلية أو اجتماعية .

والسيد المسيح قد جاء من أجل التعابى .

جاء «يطلب ويخلص ما قد هلك» (متى ١٨ : ١١) . جاء ليخلص العالم من خطيئته كما قال اشعياء النبى «كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه . والرب وضع عليه إثم جميعنا» (اش ٥٣ : ٦) وأيضاً جاء المسيح ليخلص العالم من آلامه ومتاعبه ، ولذا قال نفس النبى «لكن أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها» (اش ٥٣ : ٤) . وهو أيضاً قال «تعالوا إلىَّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال ، وأنا أريحكم» (متى ١١ : ٢٨) .

لماذا قال « يا ثقيلى الأحمال ؟ » ربما لأن الذى حمله خفيف يحتمل ويسكت . أما الذى حمله ثقيل ، فليس أمامه إلا أن يقول : يارب ...

المفروض أن نلجأ إلى الرب ، سواء كان الحمل ثقيلاً أو خفيفاً . ولكن على الأقل إذا كان الإنسان مضغوطاً جداً من ثقل أحماله ، فلن يجد أمامه سوى وعد الرب بأن يريحه .

تعالوا ... وأنا أريحكم . إنها دعوة ووعد .

دعوة من الله ، ووعد إلى عالم تعبان ، مثقل بمشاكل من كل نوع : مشاكل الانشقاقات والحروب ، ومشاكل الإسكان والتموين ، ومشاكل الزواج والطلاق ، ومشاكل التطرف والإرهاب ، ومشاكل الفساد والادمان . وفى كل هذه المشاكل ، يقول الرب تعالوا إلىَّ يا جميع المتعبين ... وأنا أريحكم .

★ ★ ★

وهنا نجد صفة جميلة من صفات الرب ، وهو أنه مريح .

مريح التعابى والثقيلي الأحمال ، كثيرون فى متاعبهم يجلسون مع آخرين فيزيدونهم تعباً على تعبهم .

وقد يلجأون إلى البعض ، فلا يجدون منهم سوى الاهمال واللامبالاة . لكن المسيح المريح ، كل من يلجأ إليه يستريح . إنه دائماً يعطى . يعطى الناس راحة وهدوءاً وعزاءاً ، وسلاماً وطمأنينة فى الداخل . و يرفع عن الناس أثقالهم ، ويحملها بدلاً عنهم ، و يريحهم . وهكذا يفعل من لهم صورة الله ...

قال الرب : أدعني فى يوم الضيق ، أنقذك فتمجدنى (مز ٥٠ : ١٥) .

البعض إذا أصابته ضيقة ، يظل يغلى بالألم والحزن داخل نفسه . أفكاره تتعبه ، ونفسيته تتعبه ، وربما اليأس يتعبه . وربما لا يجد أمامه سوى الشكوى أو التذمر أو البكاء . وفى كل ذلك لا يفكر أن يلجأ إلى الله ، ولا أن يضع أمامه قول المزمور:

« إلقِ على الرب همك . وهو يعولك » (مز ٥٥ : ٢٢) .

تعال إذن وكلم الرب عن متاعبك بكل صراحة ، سواء كانت تتعبك معاملة الآخرين أو ضغوطهم . أو ظلمهم أو قسوتهم ... أو كانت تتعبك شكوك أو أفكار ، أو خطايا ، أو عادات مسيطرة عليك ، وتأكد أن الرب يعرف متاعبك أكثر مما تعرفها أنت و يريد أن يخلصك منها جميعاً . فاطلبه فى رجاء وثقة ، واضعاً أمامك قول المزمور:

« يستجيب لك الرب فى يوم شدتك . ينصرك إسم إله يعقوب » (مز ٢٠ : ١) .

وثق أن الكنيسة أيضاً تصلى من أجلك ، حينما تقول فى آخر صلاة الشكر « كل حسد وكل تجربة ، وكل فعل الشيطان ، ومؤامرة الناس الأشرار ، وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنا وعن سائر شعبك » ... كذلك تذكر كل متاعبك فى صلوات القداس الإلهى .

* * *

تأكد أيضاً أن الضيقات ليست لوناً من التخلى .

فالله سمح أن رسله وقديسيه تصيبهم الشدائد ، ولكنه كان واقفاً إلى جوارهم

يريحهم . وهكذا قال القديس بولس الرسول عن نفسه وعن زملائه فى الخدمة « مكتئبين فى كل شئ ، لكن غير متضايقين . متحيرين لكن غير يائسين ، مضطهدين لكن غير متروكين ... » (٢كو٤ : ٨ ، ٩) .

نعم ، ما أكثر متاعب الناس ... والمسيح مستعد أن يريحهم جميعاً .

هناك شخص يتعبه الآخرون . وهناك من تتعبه نفسه . كإنسان مغلوب من شهواته ، أو مغلوب من طباعه ، أو من عاداته . أو تعبان من أفكاره وضغطها عليه . و يريد أن ينتصر على نفسه ولا يستطيع ... هذا يستند على قول الرب « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين ... وأنا أريحكم » .

وهناك إنسان تتعبه الخطية ولا يستطيع فكاكاً منها ...

كلما يتوب ، يرجع فيخطىء مرة أخرى . ومهما اعترف بخطية ، يعود إليها و يكرر اعترافاته . يضع لنفسه تداريب روحية ، ولكنه لا يثبت فيها . يحاول أن يغصب نفسه على حياة البر ، ومع ذلك فلا يزال يحيا فى الخطية . خطيته هى هى منذ سنوات ، وطبعه الردىء هو هو ، ولا تحسن ! إنه مغلوب وساقط . تكاد الخطية أن تصبح طبيعة له . وقد لجأ إلى الآباء والمرشدين الروحيين ، وإلى القراءات وأقوال الآباء القديسين وسيرهم ، ولا فائدة . هذا الإنسان ليس أمامه سوى قول الرب : « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم » .

* * *

فشل الالتجاء إلى غير الله

لماذا تجعل الرب آخر من تلجأ إليه . ابدأ به حتى تصل ولا تضل . هوذا الرب يعاتبنا قائلاً :

« تركونى أنا ينبوع المياه الحية . وحفروا لأنفسهم آباراً ، آباراً مشققة لا تضبط ماء » (ار٢ : ١٣) .

نعم ، كثيرون يلجأون إلى الآباء المشققة ، سواء من جهة الآخرين أو أنفسهم .

يقع أحدهم فى مشكلة. فيحاول أن يحلها بذكائه الخاص وتفكيره، بحيله وتدبيره. أو يلجأ إلى الآخرين لكى يسندوه فى مشكلته. ولا ينتفع من كل ذلك شيئاً، لأنه لم يلق همه على الله وحده وهو يعوله. لم يطلب المسيح لكى يريحه. إنه يحاول الاعتماد على الذراع البشرى! و يتجاهل قول الرب «تعالوا إلىّ»... لذلك يفشل و يبقى فى مشاكله بلا حل.

آخاب الملك اشتهى شهوة. اشتهى حقل نابوت اليزرعيلى. ولم يلجأ إلى الله، بل لجأ إلى إيزابل، فضيعته. أسند رأسه المتعبة على إيزابل فضاع.

كذلك شمشون أسند رأسه المتعبة على دليلة، فضاع!

ولم يحدث أن أحداً منهما وجد حلاً... كذلك اليهود لما لجأوا إلى فرعون، لكى يخفف عنهم تعبهم، لم يخففه، بل أزاد أثقالهم، قائلاً لهم: «متكاسلون أنتم متكاسلون» (خر ٥ ١٧). ولما لجأ الشعب إلى رحبعام ليخفف عنهم نير سليمان أبيه، أجابهم «أبى أدبكم بالسياط، وأنا أؤدبكم بالعقارب» (١مل ١٢: ١٤).

إن الذراع البشرى ليس هو الذى ينقذ الإنسان. إنما الذى ينقذه هو الله.

لذلك إرفع بصرك إلى الله وقل له «كل حمل سألقيه عليك، ولا أعود أفكر فيه ثانية، أنت الذى تحله، لأنك أنت حلاّل المشاكل وليس غيرك. وكلما ألجأ إلى غيرك تزداد مشاكلى وتتعقد...

* * *

عجيب أن البعض يحاول أن يحل مشاكله بخطايا!

هناك من يحاول أن يحل المشكلة بالكذب، وأحياناً يقول إنه كذب أبيض! أو قد يلجأ إلى المكر وإلى الدهاء. بل قد يحاول فى بعض الأوقات أن يحل مشكلته بالعنف. أو قد يهرب من مشكلته بتعاطى الخمر أو المخدرات لكى ينساها، أو قد يلجأ إلى المسكنات والمنومات، أو إلى التدخين. وكل ذلك لا يحل مشكلته، بل يضيف إليها مشكلة أخرى وأسوأ من ذلك من يلجأ إلى السحرة والعرافين والدجالين.

* * *

والبعض قد يحاول حل مشكلته بالوهم وأحلام اليقظة .

فيجلس و يتخيل أنه قد صار وصار ... وإذ لا يعجبه الواقع ، يحاول على الأقل أن يتلذذ بالخيال ! و يقول لنفسه : إن لم أنل النجاح . فعلى الأقل أحلم به ! وإن استيقظت من أحلامي ، أنام مرة أخرى لأحلم بها ... ! ولكن أحلام اليقظة لا تحل مشاكله التي تظل باقية . إنما يحلها قول الرب « تعالوا إلى وأنا أريحكم » .

* * *

الله هو حلال المشاكل

هناك اشخاص لم يكن لهم حل سوى الله . مثال ذلك : الثلاثة فتية ، حينما ألقوا في أتون النار . و يونان النبي حينما كان في جوف الحوت . ودانيال النبي حينما ألقوه في جب الأسود . حقاً ، من كان ينقذ كل هؤلاء سوى الله وحده ؟! الذى أرسل ملاكه فسد أفواه الأسود (دا ٦ : ٢٢) ، وأمر الحوت فقذف يونان إلى البر (يون : ٢ ١٠) . ولم يسمح للنار أن تؤذى الفتية .

كذلك تدخلت يد الله في المشكلة الأريوسية ...

لقد قامت الكنيسة كلها على أريوس الهرطوقى . حرمه المجمع المسكونى ، ورد عليه القديس أثناسيوس . ولكنه استمر يشكك الناس في الإيمان ، و يلجأ إلى سلطة الأمبراطور لحمايته فأمر بإرجاعه . وألتفت الرب إلى الكنيسة قائلاً : « تعالوا إلىّ وأنا أريحكم » . وأقيمت الصلوات ، فانسكبت أحشاء أريوس ، ومات ...

كذلك فعل الله مع جيش سنحاريب ، ومع فرسان فرعون .

حزقيا الملك مزق ثيابه وتغطى بمسح ، ودخل بيت الرب ، ملقياً همه عليه . فخرج ملاك الرب وضرب من جيش أشور ١٨٥ ألفاً (٢مل ١٩ : ١ ، ٣٥) . وأغرق الرب فرعون وفرسانه في البحر الأحمر . ذلك لأن موسى النبي قال للشعب « قفوا وانظروا خلاص الرب ... الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (خر ١٤ : ١٣ ، ١٤) .

* * *

حقاً : حينما تفشل جميع الحلول ، يبدو حل الله واضحاً . والرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون.

إنه أمين فى قوله « أنا أريحكم » . ما أجمل الترتيلة التى تقول « لما أكون تعبان ، أروح لمين غيرك » ... بنفس الوضع أراح الرب الكنيسة من ديوقلديانوس الذى سفك دماء آلاف الشهداء ، بل دماء مدن بأسرها ، كشهداء أخميم وشهداء إسنا . وأراحنا الله من ديوقلديانوس ، وجاء قسطنطين بمرسوم ميلان للتسامح الدينى ... وأراح الله الكنيسة من اضطهاد شاول الطرسوسى لها . وحوله بنعمته إلى أقوى كارز بالمسيحية . فصار بولس .

ولا ننسى أيضاً كيف أراح الله داود النبى من شاول الملك الذى كان يطارده من برية إلى أخرى ...

* * *

إن حلول الله هى أقوى الحلول وانجح الحلول . فعلينا أن نلجأ إليها ونتمسك بها .

يعقوب أبو الآباء ، كان خائفاً من أخيه عيسو ، وعاجزاً عن ملاقاته ، ولكنه عندما تمسك بالرب وقال له « لا أتركك حتى تباركنى » (تك٣٢: ٢٦)، «نجنى من يد أخى ، من يد عيسو، لأنى خائف منه أن يأتى و يضربنى، الأم مع البنين» (تك٣٢ : ١١)... حينئذ ركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبله باكياً (تك٣٣ : ٤) .

وأنت إن استطعت أن تغلب فى صراعك مع الله - كيعقوب - لابد سيريحك من كل متاعبك.

لقد تعب سمعان بطرس الليل كله ولم يصطد شيئاً . ولكنه لما تلاقى مع الرب ، وعلى كلمته ألقى الشبكة ، حينئذ اصطاد سمكاً كثيراً ، حتى كادت الشبكة تتخرق (لو٥ : ٤ - ٦) .

والمرأة الخاطئة حينما أمسكت بقدمى المسيح وبللتهما بدموعها ، أمكنها أن تتخلص من خطاياها ، وتنال المغفرة . وما كان ممكناً لها ذلك ، لولا ذهابها إليه .

المهم أن تأتى إلى الله . ولكن كيف تأتى ؟ .

كيف تأتى إلى الله ؟

١ ـ تأتي بقلب منسحق ، مثلما أتي الإبن الضال :

إنه كان فى الكورة البعيدة يعيش فى تعب . ثم فكر أن يأتى إلى أبيه ليستريح . فأتى إليه بقلب منسحق يقول : « أخطأت إلى السموات وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً » (لو١٥ : ٢١) . وبهذا الانسحاق قبله أبوه ، وأقام له وليمة فرح ، وألبسه الحلة الأولى ، وجعل خاتماً فى يده... بينما أخوه الأكبر خسر الموقف ، لأنه رفض أن يأتى ، وتكلم مع أبيه بكبرياء قلب .

لا تأت إلى الله متكبراً ، تقول له : لماذا تتركني وتضطهدنى .

ولا تنسب إلى الله كل اسباب مشاكلك ، غير معتقد أنك أنت السبب ، بل تنسب السبب إلى تخلى الله عنك !! إنما تعال إليه منسحقاً ، لكى تصطلح معه . وكما قال أحد الآباء :

اصطلح مع الله ، تصطلح معك السماء والأرض .

إذن لا تأتِ إليه فقط لكى يريحك من أتعابك ويحل لك مشاكلك ، إنما تعال أولاً لكى تصطلح معه . فربما يكون السبب الأصلى فى مشاكلك ، أنك فى خصومة مع الله ، وأن طرقك لا ترضيه... ويقول لك الله : أنا مستعد أن أريحك ، إنما المهم أن تترك الطريق الخاطىء الذى تسير فيه . وكما يقول :

ارجعوا إلىّ ، ارجع إليكم ، قال رب الجنود (ملا ٣ : ٧) .

★ ★ ★

٢ ـ إذن تعال إليه تائباً ، لكى تصطلح معه .

وحينما تصطلح مع الله . تجد الدنيا كلها قد اصطلحت معك ، ويعطيك الرب سلاماً وراحة فى قلبك . يعطيك هدوءاً داخلياً ، وثقة وطمأنينة . وغالباً ما يكون سبب تعب الإنسان ، هو شىء فى داخله يتعبه . وهنا يعجبنى قول القديس يوحنا ذهبى الفم :

لا يستطيع أحد أن يضر إنساناً ، ما لم يضر هذا الإنسان نفسه .

فمن الجائز أن يكون سبب متاعبك ، هو أنك تضر نفسك ، فإذا ما اصطلحت مع الله وأتيت إليه تائباً ، ستتخلص من ضررك لنفسك ، وتكون راحتك سهلة وممكنة .

* * *

٣ ـ كذلك ينبغي أن تأتي إلى الله ، بالإيمان ، وبالصلاة .

كثيرون يأتون إلى الله ، ولكن ليس عندهم إيمان أن الله سيحل مشاكلهم ! ويصلون وهم لا يحسون أن الصلاة ستكون لها نتيجة. وهكذا يستمرون فى تعبهم بسبب عدم إيمانهم ، وبسبب فقدانهم للرجاء والثقة بالله .

لقد قال السيد المسيح للمرأة الخاطئة التائبة «إيمانك خلصك ، فاذهبى بسلام» (لو٧ : ٥٠). وقال للأبرص الذى شفى «قم وامض... إيمانك خلصك» (لو١٧ : ١٩). وقال للأعمى المستعطى فى أريحا «أبصر.إيمانك قد شفاك» (لو١٨ : ٤٢)، وقال للأعميين «بحسب إيمانكما ، ليكن لكما» (متى٩ : ٢٩). لذلك تعال إليه بإيمان ، واثقاً أنه سيريحك ، وحينئذ ستستريح ...

* * *

٤ ـ تعال إليه أيضاً ، وأنت تحمل نيره عليك .

فهو الذى قال « احملوا نيرى عليكم ، وتعلموا منى فإنى وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم» (متى١١ : ٢٩). إذن احمل صليبك واتبعه. وحينما تأتى إليه فى مشاكلك ، لا تأت متذمراً متضجراً ، بل تعال فى حياة التسليم ، خاضعاً لمشيئته ، متذكراً قول الرسول :

« واحسبوه كل فرح يا أخوتي ، حينما تقعون فى تجارب متنوعة » (يع ١ : ٢).

بهذا لا يضغط عليك التعب ، لأن قلبك سليم من الداخل. لم تستطع المتاعب التى فى الخارج أن تتعب القلب من الداخل ، لأنه محصن بالإيمان وبحياة التسليم ، ولأنه يحمل نير الرب بفرح. والقلب فى الداخل مملوء بالسلام والطمأنينة وبالفرح ، حتى فى وسط الضيقات ...

فإن لم يكن لك هذا الشعور، اطلبه من الله.

وهو الذى يهبك السلام، لأنه هو الذى قال « سلامى أترك لكم، سلامى أنا أعطيكم » (يو١٤ : ٢٧). إن من ثمار الروح « محبة وفرح وسلام » (غل ٥ : ٢٢). فإن كانت لك ثمار الروح هذه، ستحيا دائماً مستريحاً.

٥ ـ ادخل إذن فى شركة الروح القدس، ولتكن لك ثمار الروح، وتعال إلى الله هكذا، تجد راحة لنفسك.

الفصل الرابع

سعى الله لخلاصنا

"يريد جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون"

(١تى ٢: ٤)

قد يفقد الإنسان رجاءه فى الخلاص ، لأن أعداءه قد اعتزوا أكثر منه ، ولا قدرة له على مقاومتهم ، سواء فى ذلك أكانوا أعداءه الروحيين ، أو مضايقيه فى هذا العالم . وهو خلال ذلك يصرخ « إن الغرباء قد قاموا علىَّ ، والأقوياء طلبوا نفسى ، ولم يسبقوا أن يجعلوا الله أمامهم » (مز ٥٣) « ضاع المهرب منى ، وليس من يسأل عن نفسى » (مز ١٤١) .

أو قد يفقد خاطيء رجاءه فى التوبة ، لأنه لا يقدر على الوصول إليها ، أو بالأكثر لا يريدها .. !

ولكننا نقول لكل واحد من هؤلاء وأمثالهم :

لا تفقد رجاءك . فإن الله يهتم بخلاصك أكثر مما تهتم أنت .. بل هو الذى يسعى لخلاصك . وهذا هو اسلوب الله منذ البدء ..

* * *

بدأت قصة هذا الخلاص منذ أيام أبوينا الأولين آدم وحواء . لقد سقط الاثنان فى الخطية ، واستحقا حكم الموت . وكان الخلاص لازماً لهما جداً . ومع ذلك نرى أن الله نفسه هو الذى سعى لكى يخلصهما ...

لا آدم طلب الخلاص ، ولا حواء ، بل هربا كلاهما من وجه الله ، واختفيا خلف الأشجار.. !

ما كان الهروب وسيلة عملية تؤدى إلى الخلاص . ولكن الخلاص لم يكن يشغلهما فى ذلك الحين . وكل ما كان يشغلهما هو الخوف والخجل . ما سمعنا قط أن آدم قال لله : يارب اغفر، يارب سامح . أخطأت إليك ، فامح ذنبى ... ولا حواء قالت شيئاً من هذا ... ولعل هذه الألفاظ لم تكن فى قاموسهما الروحى فى ذلك الحين ...

وفيما هما لا يبحثان عن خلاص نفسيهما ، كان الله يبحث عنهما ..

كان ينادى فى الجنة « يا آدم ، أين أنت ؟ » (تك ٣ : ٩) . كان الله هو الذى يفتش عن آدم وحواء ، وهو الذى يفتح الموضوع ، ويستدرجهما إلى الكلام ، ويشرح لهما ما وقعا فيه من خطأ ، وما يستحقانه من عقوبة . ثم يقدم لهما أول وعد بالخلاص ، وهو أن نسل المرأة سوف يسحق رأسِ الحية (تك ٣ : ١٥) .

* * *

صدقونى ، لو أن الله ترك الإنسان إلى حريته وحده ، أو إلى قدرته وحده ... ما خلص أحد على الاطلاق ... !

ولكن الله هو الذى يسعى وراء خلاص الكل ... كما أعطانا مثلاً عن سعيه وراء الخروف الضال ، ووراء الدرهم المفقود (لو ١٥) .

* * *

كان الخروف سائراً فى ضلاله ، لا يدرى أين هو ، وربما لا يدرى ما هو فيه . وفيما هو كذلك كان الراعى الصالح مهتماً بخلاصه . الراعى هو الذى اكتشف ضياع هذا الخروف ، وهو الذى بحث عنه وفتش ، وجرى وراءه فى الجبال والوديان إلى أن وجده . ولعلها كانت مفاجأة له ، حينما وجد راعيه أمامه ، يأخذه فى حنان ، ويحمله على منكبيه فرحاً . حقاً ما أجمل قول الوحى الإلهى عن الرب كراعٍ :

« أنا أرعى غنمى وأربضها ـ يقول السيد الرب ـ وأطلب الضال ، واسترد المطرود ، وأجبر الكسير ، وأعصب الجريح ... » (حز ٣٤ : ١٥ ، ١٦) .

هو الذى يطلب ويسترد ، وهو الذى يجبر ويعصب . العمل هو عمله ، وليس عملنا نحن ... أليس هذا أمراً يبعث الرجاء فى النفس ؟

* * *

وفى مثال الدرهم المفقود ، نرى نفس الوضع ، وبأسلوب أعمق :

الدرهم لا يملك حياة ، ولا عقلاً ولا فكراً ولا إرادة .. ولا يدرى إلى أين هو قد تدحرج ، وأين استقر به الأمر . وأيضاً لا يعرف كيف يرجع إلى كيس صاحبه أو جيبه ...

وقد كان الدرهم المفقود رمزاً إلى كثيرين من نوعه ...

كان رمزاً لكثيرين ممن لا حياة لهم ولا إرادة ... وكان رمزاً أيضاً للضآلة ... فلو أن الأرملة كانت فقدت مائة جنيهاً ذهباً ، لكان من المعقول أن تبحث عنها وتفتش... أما مجرد درهم واحد ينال منها كل ذلك الاهتمام ، فهو أمر يدعو إلى التأمل ، و يضع أمامنا عمقاً فى الرجاء وهو:

إن الله يبحث عن خلاصك ، مهما بدا قدرك ضئيلاً !

لقد ضرب الله لنا مثل الدرهم لنعرف قيمة النفس عنده .

لأنه قد يسأل بعضهم ما قيمة هذا الدرهم الضئيل ، حتى يصير هذا البحث الجاد عنه ، وهذا الفرح وهذه الوليمة عند العثور عليه ؟!. إن كل هذا رمز لاهتمام الرب بالنفس الواحدة ، مهما كانت تبدو ضئيلة الشأن . و يعبر المثل عن سعى الله لخلاصنا حتى لو لم نسعَ نحن ، وفرحه بخلاصنا وفرح الملائكة أيضاً .

ألست أنت عند الله أفضل من درهم واحد مفقود ؟!

* * *

ثق أن نفسك ثمينة فى نظرة الله إليها ، مهما كانت تبدو ضئيلة فى نظر الناس ، أو فى نظرك أنت... مثل المرأة السامرية التى سعى الرب لخلاصها ، وهى محتقرة فى نظر الناس... ومثل زكا العشار الذى ذهب الرب الى بيته ، وهو فى نظر الكل رجل خاطىء لا يستحق (لو ١٩ : ٧) .

* * *

حقاً ، إن الرب يسعى لخلاصنا ، ويفرح بذلك جداً ..

كما أخذ الخروف الضال ، و « حمله على منكبيه فرحاً » (لو ١٥ : ٥) ، وكما قال إنه «يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب» (لو ١٥ : ٧) ، وكما فرح برجوع الابن الضال ، وذبح له العجل المسمن ، وكما فرح بالعثور على الدرهم المفقود (لو ١٥ : ٢٣ ، ٩) . إنه يسعى لخلاصنا أكثر مما نسعى نحن ، و يفرح بخلاصنا أكثر مما نفرح نحن . و يفتش عنا بكل اهتمام ، أكثر مما نفتش نحن عن ابديتنا . وما أجمل ما قاله الرسول عنه إنه :

« يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤) .

وقيل عنه أيضاً إنه لا يشاء موت الخاطىء ، بل أن يرجع ويحيا (حز ١٨ : ٢٣) .
ونقول عنه فى آخر كل صلاة من صلوات الأجبية : « الداعى الكل إلى الخلاص من أجل الموعد بالخيرات المنتظرة » ...

* * *

إن عمل الله ليس فقط أن يفرح بتسبيح السارافيم ، أو بنقاوة الملائكة ، أو بكرازة الرعاة ، أو بجهاد القديسين ، إنما هو يفرح بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة (لو ١٥ : ٧) .

يطلب ما قد هلك ..!

لا تفقد الرجاء إذن مهما ضللت ، لأن هناك درجة أبشع كثيراً من الضلال قد جاء الرب لخلاصها ، كما قال عن نفسه إنه :

« جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ : ١٠) .

يخلص مَنْ ؟ ليس مجرد الضعيف أو الخاطىء أو المتوانى أو المريض ... وإنما « ما قد هلك » ... ! ليس فقط مَنْ هو فى طريق الهلاك ، إنما ما قد هلك !! ... أى رجاء أعظم من هذا أن الرب « جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » ... ولم يقل « يخلص الطالبين ... » إنما هو الذى يطلب ... الذى يسعى لخلاص كل أحد ...

إذن حتى الذى هلك ، مازال له رجاء فى الخلاص !

نعم بلا شك . إن المسيح قد جاء ليخلص هذا الهالك وأمثاله . جاء يخلص الموتى بالخطايا (أف ٢ : ٥) .
لا يقل أحد إذن ، مهما حدث منه ، ومهما حدث له : أنا انتهيت ، أنا ضعت . وليست هناك فائدة منى ، ولا وسيلة لخلاصى ... ! اطمأن فحتى إن كنت قد هلكت فعلاً ، فاعلم ان باب الخلاص لا يزال مفتوحاً أمامك ، والرب قد جاء يطلب ويخلص ما قد هلك ...

وهب الله رجاء للمجدلية التى كان عليها سبعة شياطين .

وعندما قام من الأموات ، يقول مرقس الإنجيلى إنه « ظهر أولاً لمريم المجدلية التى كان قد أخرج منها سبعة شياطين » (مر ١٦ : ٩) . ولما أراد أن يبشر رسله القديسين بقيامته ، اختار هذه بالذات لكى تبشرهم !! ونحن لا ندرى هل كان عليها سبعة شياطين فقط أم رقم سبعة هنا له معنى رمزى يدل على عدد كبير من الشياطين !!

ولكن ماضى المجدلية قد نُسى ، وقد أصبحت مبشرة للرسل ! يا للعجب ! أليس هناك رجاء لك من خلال قصة هذه المرأة العجيبة ؟!

* * *

حقاً انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار (متى ١٨ : ١٠) .

سواء الصغار فى سنهم ، أو فى روحياتهم ، أو فى نوعيتهم ، أو أصحاب الماضى الطويل الاثيم . لا تحتقروا أحداً . ولا تصغر نفس أحد إن كان واحداً من هؤلاء ، ولا يفقد رجاءه .

صدقونى ، إن الله فى اليوم الأخير سيرتبنا ترتيباً آخر غير الذى نحن عليه الآن ...

ترتيبنا فى العالم الحاضر هو حسب السن أو المركز أو الدرجة ، أو المواهب والقدرات ... أما فى الأبدية فسيكون حسب القلب الذى يعرفه الله . وربما كثير من الصغار هنا ، ومن المزدرى وغير الموجود ، يسبقون أصحاب الدرجات والمواهب ، وأصحاب المناصب والرئاسات . فلا تحتقروا إذن أحد هؤلاء الصغار .

* * *

ولما أراد الله خلاص اريحا ، اختار راحاب الزانية (يش ٢) .

ودخلت راحاب فى شعب الله ، كما دخلت فى سلسلة الأنساب (متى ١) وصارت قديسة ، ونسى لها ماضيها . وصارت صورة حية للرجاء لكل من يتذكرها .

ولعلك تسأل : ما معنى اهتمام الله بامرأة زانية ، وبأخرى كان عليها سبعة شياطين ؟! أقول لك إنه نفس اهتمامه بالأشياء الصغيرة ، بالمزدرى وغير الموجود (١ كو ١ : ٢٨) .

إن قصة (المدوسة بدمها) فى سفر حزقيال ، تعطى رجاء للكل ...

قال عنها الكتاب إنها كانت عريانة وعارية ، ومطروحة على الحقل بكراهة نفسها ، وانها كانت مدوسة بدمها ... فهل تركها الله هكذا ؟ كلا ، إنه يقول لها وهى فى هذه الحالة السيئة :

« مررت بكِ ورأيتكِ ، وإذا زمنكِ زمن الحب » .

أى حب يارب لهذه المكروهة ، العارية من كل فضيلة ، المطروحة على الحقل ؟! نعم ، إن الله أحبنا ونحن خطاة ، ولهذا بذل نفسه عنا ، ومات لأجلنا ، البار من أجل الأثمة . وماذا عن هذه الاثيمة الخاطئة ؟ يقول لها « مررت بكِ » ، وليست هى التى ذهبت إليه . وماذا أيضاً ؟ يقول :

« فبسطت ذيلى عليكِ ، وسترت عورتكِ » . غطى الخطية ولم يحتقر صاحبتها ...

* * *

« ودخلت معكِ فى عهد ، يقول السيد الرب ، صرتِ لى » ...

وفى هذا العهد ، منحها الرب الكثير من نعمه الروحية . يقول :

« فحممتكِ بالماء » يعنى المعمودية ، حيث غسلها من كل خطاياها .

« ومسحتكِ بالزيت » يعنى الميرون ، فنالت المسحة المقدسة ، مسحة الروح القدس . « وألبستكِ مطرزة ، وكسوتكِ براً » أى البر الجديد الذى نالته .

وماذا أيضاً ؟ يقول : « وجملتِ جداً جداً ، فصلحتِ لمملكة » أى للملكوت .

« وخرج لكِ إسم فى الأمم لجمالكِ ، لأنه كان كاملاً ببهائى الذى طرحته عليكِ ، يقول السيد الرب » (حز ١٦ : ١٤) .

عجيب حقاً هو الله الحنون هذا ، الذى يطرح بهاءه على هذه المدوسة بدمها ، المكروهة ، فتصير كاملة الجمال ، وتصلح لمملكة ، وتدخل فى عهد مع الله ، وتنال من كل نعمه ، بل يقول لها : « وتاج جمال على رأسكِ » (حز ١٦ : ١٢) .

أليس كل هذا يعطينا درساً عجيباً فى الرجاء ... ؟

ليس المهم ما نحن فيه ، إنما ما يصيرنا الرب إليه ...

وفى قصة هذه الخاطئة ، التى ترمز لأورشليم كلها ، كان الرب يعمل كل شيء. ولو تركها لنفسها لضاعت ، واستمرت فى عبادة الأصنام. ولكن مناخس الرب كانت تحرك الضمير باستمرار وتقوده إلى التوبة. ولعل هذا الأمر يذكرنا أيضاً بقصة شاول الطرسوسى.

مثال شاول الطرسوسى

هل شاول الطرسوسى بحث عن المسيح ، أم بحث المسيح عنه ؟

كان شاول « مجدفاً ومضطهداً للكنيسة ومفترياً » كما قال عن نفسه (١ تى ١ : ١٣) وكان « يسطو على الكنيسة ، وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء و يسلمهم إلى السجن » (أع ٨ : ٣). ولكن الله كان يفكر فى خلاص شاول ، وفى استخدام مواهبه للخير، فظهر له فى طريق دمشق ، ودعاه.

إن شاول لم يطلب الإيمان . وفى يوم لقائه بالرب ، لم يكن شاول يرتب لهذا اللقاء ولم يفكر فيه ، ولا طرأ على ذهنه ..

ولكن الله هو الذى سعى إلى شاول ، وطلبه وخلصه ودعاه.

إن فى تحول شاول الطرسوسى مضطهد الكنيسة إلى أعظم رسول فى المسيحية ، وتعبه لأجل الكلمة ، لهو درس عظيم فى الرجاء أمام كل مَنْ هم بعيدين عن الرب.

لعل مثله اريانوس والى أنصنا ، أكثر ولاة مصر عنفاً فى قتل الشهداء وتعذيبهم ، وكيف أمكن أن يتحول هو نفسه إلى شهيد ... بعمل الرب فيه ولأجله ..

فى سعى الله لخلاصنا ، نذكر أيضاً قصة عذراء النشيد .

* * *

مثال عذراء النشيد

كانت نائمة ومسترخية ، وقد تعطرت وتطيبت ، خلعت ثيابها ، وغسلت رجليها ، ونامت . وصوت حبيبها يسعى إليها من بعيد ، «ظافراً على الجبال ، قافزاً على التلال ، يقول لها : «قومي يا حبيبتي وجميلتي وتعالى» (نش ٢ : ١٠) . بل هو يقف على بابها يقرع : «افتحى لى يا أختى ، يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي ، لأن رأسي قد امتلأ من الطل ، وقصصي من ندى الليل» (نش ٥ : ٢) ... أى سعى من الرب أكثر من هذا ، وأى انتظار فى الحاح على طلب النفس ، أكثر من رأسه تمتلىء من ندى الليل . إنه درس فى الرجاء لكل نفس نائمة ، لا تطلب الله ، بل تهتم بذاتها وراحتها ...!

الله هو الواقف على الباب ، وهو الذى يقرع ... !

وهو الذى يقول فى كل حين « هأنذا واقف على الباب وأقرع . إن سمع أحد صوتى وفتح الباب ، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معى» (رؤ ٣ : ١٠) . إن الله الطيب الذى لم يتركنا حتى فى تكاسلنا واهمالنا وبعدنا عنه فى حياة التراخى واللامبالاة ، وإنما بلغ من فرط محبته انه :

سعى حتى إلى العشارين والخطاة ، وجلس على موائدهم ، ليجذبهم إليه !

إنه يسعى إلى كل هؤلاء ، و ينزل إليهم لكى يرفعهم إليه ، و يقول إن هؤلاء أيضاً أبناء لإبراهيم (لو ١٩ : ٩) . بل إن من أجمل الآيات فى هذا المجال ، هى قوله عن نفسه إنه : **« جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ : ١٠)** ...

* * *

وسعى الله لخلاصنا ، ترمز إليه قصة الخليقة :

تحكى لنا الآيات الأولى من سفر التكوين أن « الأرض كانت خربة وخالية » وكانت مغمورة بالمياه «وعلى وجه الغمر ظلمة» (تك ١ : ٢) . صورة كئيبة بلا شك . ولكن الله لم يترك الأرض الخربة هكذا ، وإنما «كان روح الله يرف على وجه

المياه » . ثم قال الله ليكن نور ، فكان نور .. وبدأ الله ينظم هذه الأرض ، ويمنحها حياة وجمالاً ، ويخلق فيها الأشجار والأزهار والأطيار ، ووضع قوانين الفلك بما فيه من شمس وقمر ، ونجوم وكواكب .. ثم خلق الإنسان . وصارت الأرض جميلة وعامرة بالحياة ..

وفى كل هذا يعطى الرب رجاء لكل أرض خربة تغمرها المياه ..

لا تيأس مهما وصلت المياه إلى نفسك ، فروح الله يرف على وجه المياه . ولا تيأس مهما غمرتك الظلمة ، فلا بد سيأتى الوقت الذى يقول فيه الله : ليكن نور...

لذلك ليكن لك رجاء مادام الله يسعى بنفسه لخلاصك .

★ ★ ★

إن البشرية عاجزة عن تخليص نفسها . وما لا تستطيع أن تفعله من أجل خلاصها ، يعمله الرب من أجلها ..

أليست هذه هى قصة التجسد والفداء فى صميم مفهومها اللاهوتى : الله بنفسه يسعى لخلاص البشر ، ويقدم لهم الكفارة والفداء . أو ليس هو أيضاً الذى أرسل الأنبياء والرسل لهذا الغرض ، لكى ينادوا داعين الجميع : « اصطلحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) . ومن أجل هذا أيضاً أرسل لنا الوحى الإلهى فى الكتب المقدسة القادرة أن تحكمنا للخلاص (٢ تى ٣ : ١٥) .

زيارات النعمة للجميع

إن (زيارات النعمة) تمر على بيوت الجميع ، ولم تغفل أحداً ، بل كل خاطىء كان له نصيب منها ... !

قيل عنه إنه كان يجول يصنع خيراً (أع ١٠ : ٣٨) يفتش عن النفوس الضائعة ، مهما عاندت ، ومهما قاومت ، ومهما هربت منه ... ! يظل وراءها حتى يرجعها إليه ، مهما كانت حالتها تدعو إلى اليأس . وهنا نقول قاعدة هامة وهى :

إن الله لا ييأس مطلقاً من خلاص الناس ، مهما يئسوا هم ...

الله دائماً يعمل ، ويعمل مع الكل . ليس فقط مع المريض روحياً ، وإنما حتى مع الميت الذى قد أنتن (يو ١١ : ٣٩) ، حتى مع اللص فى آخر ساعات حياته على الأرض (لو ٢٣ : ٤٣) ، حتى مع رئيس العشارين ، زكا ...! ومع السامرية التى عاشت مع خمسة (أزواج) !! (يو ٤ : ١٨) .

وهو يبحث عن هذه المرأة الضائعة ، ويجذبها إلى التوبة ...

هو الذى ذهب إلى البئر حيث تستقى . وهو الذى دبر المقابلة بحكمته ، ورتب موعد اللقاء . وهو الذى جرّ الحديث معها ، وكلمها عن الماء الحى ، وهو الذى فتح الموضوع وشجعها على الاعتراف وهو الذى نطق باعترافاتها الصعبة حتى لا تحرج ، وقبل منها مجرد الموافقة ولم يبال فى كل ذلك بأن اليهود لا يعاملون السامريين» ، ولا بأن تلاميذه «كانوا يتعجبون من أنه يتكلم مع إمرأة» (يو ٤ : ٩ ، ٢٧) .

★ ★ ★

حقاً كما قال القديس يوحنا ذهبى الفم عن محبة الله :

إن الله يجول ملتمساً سبباً لخلاصنا ، ولو دمعة تسكبها ... يأخذها الله ـ قبل أن يخطفها شيطان المجد الباطل ـ ويجعلها سبباً لخلاصك ... حقاً انه لا يوجد أحن من قلب الله علينا ... أحن منا على أنفسنا ! إنه هو الذى قال : «بسطت يدىّ طول النهار إلى شعب معاند ومقاوم» (رو ١٠ : ٢١ ؛ إش ٦٥ : ٢) حتى إلى هذا الشعب المتمرد السائر وراء أفكاره ، بسط الله يده ، طالباً خلاصه ... ! ولعل هذا يذكرنا بمثل الزارع .

★ ★ ★

لقد قبل الرب دموع المرأة الخاطئة ، وقال لها مغفورة لكِ خطاياكِ . وقال للمتكئين إن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها لأنها أحبت كثيراً . وشرح كيف أنها كانت أفضل من الفريسى ...

هذه الدموع أمام الله محت كل الماضى الاثيم الذى للمرأة .

لم يذكر لها كل خطاياها القديمة ، أمام هذا الإنسحاق الحاضر . حقاً ما أجمل قول الرب عن خطايانا «لا أعود أذكرها» .

مثـال الـزارع

الله شبه نفسه بزارع يلقى بذاره فى كل أرض ...

لقد ألقى بذاره على الأرض الجيدة فى كل مستوياتها ، التى تنتج ثلاثين كالتى تنتج ستين كالتى تنتج مائة . الكل سعى الرب لتزويده بعمل نعمته ، بتوصيل كلمة الخلاص إليه ... ولكن ماذا عن الأرض المتحجرة ، والأرض المحاطة بالأشواك ؟ كل منها أيضاً زارته النعمة . ولكن « مَنْ له اذنان للسمع فليسمع » (متى ١٣ : ٩) ...

الله يسعى لخلاص الكل . لا يمنع كلمته المحيية عن أحد ...

حتى الطريق ، وصلته بذار من الرب ، وكذلك الأرض التى لم يكن لها عمق . فإن كان الله قد عمل فى كل هؤلاء ... فليكن لك رجاء ان الله سيعمل فيك أنت أيضاً ، لكى تثمر . وإن لم تثمر ، هو « ينقب حولك و يضع زبلاً » (لو ١٣ : ٨) ..

هنا ونقول : ما أجمل تلك العبارات المعزية التى نصليها فى القداس الغريغورى « لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك . ربطتنى بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة » ...

★ ★ ★

لولا طيبة الله ، ما كان يلقى بذاره حتى وسط الأشواك ...

لو أن واحداً منا فى نفس الموقف ، لقال لتلك الأرض : « انزعى الشوك منكِ ، لكى ألقى بذارى فيكِ » ... ولكن الله لم يفعل هكذا ... حقاً إن بعض الأراضى استطاع الشوك أن يخنق زرعها . ولكن الله قادر أن ينقى الشوك من كل أرض . هو نفسه ينظفها « ينقب حولها » ، لأن كثيراً من الأنفس لا تستطيع أن تنزع الشوك من حولها ، وإنما هى تصرخ مع كلمة الوحى قائلة للرب :

« توبنى فأتوب . لأنك أنت الرب إلهى » (أر ٣١ : ١٨) .

وتقول أيضاً مع المرتل : « اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج ، انضح علىَّ بزوفاك فأطهر » (مز ٥٠) . أنت يارب الذى تغسلنى ، وأنت الذى تطهرنى . وأنا أقول مع

ذلك الأبرص «يا سيد، إن أردت، تقدر أن تطهرنى» (متى ٨ : ٢). فيجيب الرب ـ كما قال لذاك ـ أريد فاطهر...

الله يصالحنا معه

الله يريد أن يصالحنا و يصلحنا ، بكل الوسائل الممكنة ...

من أجل ذلك أرسل الله الرسل والأنبياء والوحى الإلهى ... ولماذا أرسل كل هؤلاء؟ يجيب القديس بولس الرسول قائلاً: «الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة ... إذن نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢كو ٥ : ١٨ ، ٢٠) .

★ ★ ★

الله الحنون صالحنا لنفسه ، ولم يحسب لنا خطايانا ...

وفى ذلك يقول بولس الرسول أيضاً : « إن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم » (٢ كو ٥ : ١٩) . وكما نقول عنه فى خاتمة كل صلاة : « الداعى الكل إلى الخلاص من أجل الموعد بالخيرات المنتظرة » ...

★ ★ ★

والله فى صلحه معنا وفى غفرانه ، يقدّر ضعف طبيعتنا ...

يقول المرتل فى المزمور : « كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . كما يترأف الأب على البنين ، يترأف الرب على خائفيه » ولماذا ؟ «لأنه يعرف جبلتنا ، يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٢ـ ١٤) ... الله يتنزل إلى هذا التراب ، و يقيم صلحاً معنا ، واضعاً فى اعتباره ضعف طبيعتنا .

★ ★ ★

صدقونى ، انه يفعل هذا حتى مع الهاربين منه ... !

ذكرنا قبلاً ، كيف سعى الله إلى آدم وهو هارب منه ومختبىء خلف الأشجار (تك ٣ : ٨) . ونضيف مثالاً آخر فى قصة يونان النبى .

قصة يونان النبي

كان يونان النبي هارباً من الله . وسعى الله لخلاصه ...

لم يرفضه الله ، لأنه هرب منه إلى ترشيش ، مخالفاً أمره فى الذهاب إلى نينوى . ولم يرفضه فى ثانى مرة ، حينما تابت نينوى ورحمها الله ، فاغتاظ يونان ! وإنما عمل الله على مصالحة يونان واقناعه بالصواب الذى اغتاظ منه يونان حتى الموت !! (يون ٤ : ٣ ، ٤) . انظر حنو الله على يونان فى حزنه الذى لم يكن يتفق مع مشيئة الله . يقول الكتاب : « فأعد الرب الإله يقطينة ، فارتفعت فوق يونان ، لتكون ظلاً على رأسه لكى يخلصه من غمه » (يون ٤ : ٦) .

★ ★ ★

إن سفر يونان يعطينا مثلاً جميلاً عن سعى الله لخلاص البشر:

ما كان أهل نينوى يفكرون فى خلاص أنفسهم .
وما كان بحارة السفينة التى ركبها يونان يسعون إلى خلاصهم .
ولا يونان شعر أنه أخطأ وطلب الخلاص لنفسه !
ولكن الله بنفسه سعى لخلاص كل هؤلاء ، وخلصهم ...

الله هو الذى بدأ . والمبادرة أتت منه . ثم اتت استجابتهم هم لعمله الإلهى ، مباشرة من بحارة السفينة وأهل نينوى ، وبعد اقناع وبعد وقت من جانب يونان النبى ...

★ ★ ★

اجتذب الله أهل السفينة إليه بخطة بارعة ...

بالأمواج التى لطمت السفينة حتى كادت تنكسر ، وبالخوف الذى أصاب البحارة حتى صرخ كل واحد إلى إلهه ، وليس إلى الله الواحد ، ثم بعمل الله فى القرعة التى ألقوها ، وأيضاً باعتراف يونان . ثم بهدوء البحر بعد القاء يونان . ونجحت الخطة الإلهية مع البحارة « فخاف الرجال من الرب خوفاً عظيماً ، وذبحوا

ذبيحة للرب ، ونذروا نذوراً » (يون ١ : ١٦) .

وكان البحارة قد استخدموا أولاً طرقهم البشرية ، فلم تنجح « إذ طرحوا الامتعة التى فى السفينة ليخففوا عنهم » ولكن « البحر كان يزداد هيجاناً » كذلك فإنهم « جدفوا ليرجعوا السفينة إلى البر فلم يستطيعوا » ولو استطاعوا ما خلصوا إيمانياً . ولكن الله تدخل بطريقته التى أمكنها أن تخلصهم من البحر وتخلصهم من جهة الإيمان . ونجحت خطة الله فى خلاصهم ...

★ ★ ★

واجتذب الرب أهل نينوى ، بالانذار الإلهى ، ومناداة يونان .

وما كان أهل نينوى قادرين على خلاص أنفسهم إذ كانوا امميين بعيدين عن الإيمان ، كما انهم كانوا جهلة « لا يعرفون يمينهم من شمالهم » (يون ٤ : ١١) . ولكن انذار الله لهم بأن المدينة ستنقلب وتهلك ، اتى بثماره ، فخافوا وتابوا وصاموا . « ورجعوا عن طريقهم الرديئة ، وقبل الله توبتهم » ...

★ ★ ★

وبقى يونان . وخلّصه الله أيضاً ، على دفعتين ...

فى المرة الأولى سعى الله لتخليص يونان من عواقب مخالفته وهروبه . واستخدم لذلك الخطر الذى تهدده فى البحر . والذى قابله يونان أولاً بلامبالاة . وكان نائماً حتى فى الوقت الذى صلى فيه كل البحارة الاميون ، لدرجة أن رئيس النوتية وبخه قائلاً : « ما لك نائماً ، قم اصرخ إلى إلهك ، عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك » (يون ١ : ٦) . ثم أكمل الله خطته الإلهية بأنه « أعد حوتاً عظيماً فابتلع يونان » .

★ ★ ★

وتخلص يونان من عصيانه ، وبقى أن يتخلص من محبته لكرامته .

وفعل الله ذلك بالشمس التى ضربت رأس يونان فذبل ، واليقطينة التى ظللت عليه ، والدودة التى أكلت اليقطينة ، ثم تفاهم الله معه .

وهكذا استطاع الله أن يخلص يونان ، كما خلص نينوى وأهل السفينة .

وكان عند هؤلاء جميعاً استجابة لعمل الله فيهم وعمله من أجلهم . ولعل هذا يقودنا إلى نقطة وهى :

الشركة مع الله

الله يعمل لأجلك ، يسعى لخلاصك ، فعليك أن تستجيب .

تشترك فى العمل معه . لا تقاوم عمل الروح كما فعل اليهود وآباؤهم (أع ٧ : ٥١) . ولا تفعل أيضاً مثلما فعلت عذراء النشيد ، التى رفضت أن تفتح لحبيبها . فكانت النتيجة أنه - بعد طول انتظار - «تحول وعبر» . فقالت العروس «نفسى خرجت عندما ادبر . طلبته فما وجدته . دعوته فما أجابنى» (نش ٥ : ٦) .

* * *

شعب موسى ، كان عاجزاً عن أن يخلص نفسه من عبودية فرعون . والله هو الذى سعى إلى خلاصه وخلصه . وكما قال موسى : «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر ١٤ : ١٤) .

ولكن المهم هو أن هذا الشعب استجاب لعمل الله وسار وراءه ، ودخل فى البحر الأحمر حينما شقه الله أمامه .

* * *

واحترس أن تفعل كما فعل اغريباس وفيلكس والشاب الغنى

اغريباس الملك اتته دعوة الله للخلاص . زارته النعمة وتأثر . وقال لبولس الرسول «بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً» (أع ٢٦ : ٢٨) . ومع ذلك لم يخط خطوة إيجابية من جهته ، وانصرف ، ولم يصِرْ مسيحياً .

وفيلكس الوالى زارته النعمة حينما تكلم القديس عن البر والتعفف والدينونة ، فارتعد فيلكس . ولكنه أجّل الموضوع وقال لبولس : «إذهب الآن . ومتى حصل لى وقت استدعيك» (أع ٢٤ : ٢٥) . وهكذا لم يشترك مع عمل الروح ، وجعل الفرصة تفلت من يده !

وكذلك الشاب الغنى ، كانت له الفرصة أن يسمع كلمة الخلاص من فم المسيح ، ولكنه سمح لشهوة المال أن تقهره «ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة» (متى ١٩: ٢٢).

★ ★ ★

إذن الله يسعى لخلاصك . يبدأ العمل لأجلك . ولكن عليك أنت أن تستجيب أوتشترك معه أو تخضع لعمله . ولقد صدق القديس أوغسطينوس حينما قال :

[الله الذى خلقك بدونك ، لا يشاء أن يخلصك بدونك] ...

إذن لا بد أن تشترك فى العمل معه : الروح القدس يعمل فيك ، وأنت تستجيب لعمل الروح . لا تطفيء الروح (١ تس ٥: ١٩) ولا تحزن الروح (أف ٤: ٣٠). ولا تقاوم الروح (أع ٧: ٥١). وإنما تدخل فى شركة الروح ، بأن تعمل معه . لأن الله لا يريد أن يرغمك على محبته . واعرف أن طول أناة الله ، إنما لكى تقتادك إلى التوبة (رو ٢: ٤). فلا تعتمد على طول أناته وعلى محبته وصبره وسعيه إليك ، لكى لا تصل إلى اللامبالاة والتهاون . وهوذا الكتاب يقول : «إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم» (عب ٣: ١٥).

بأنواع وطرق شتى

إن الله له طرق كثيرة فى اقتياد الناس إلى الخلاص ...

البعض يدعوهم إليه . والبعض يتركهم إلى حين ، إلى أن يلهب قلوبهم بالحب والاشتياق إليه . والبعض يجتذبهم بالتجارب والضيقات ، مثلما قاد يونان إلى الطاعة بحوت ابتلعه ، واجتذب أهل السفينة إلى الإيمان بإثارة البحر عليهم ثم تهدئته ، والبعض يقودهم بمجرد الانذار مثلما فعل مع أهل نينوى .

أتشكو من التجارب والضيقات ؟ ربما سيخلصك الرب بالضيقات !

ربما أنت من النوع الذى لا يصلح معه سوى هذا الأسلوب ، أو يكون هذا الأسلوب أكثر سرعة فى اجتذابك إلى الله .

فإن أتتك التجارب ، لا تتضايق . لعلها لخيرك .

خذ الخير الذى فى التجارب ، ولا تركز على ما فيها من ألم .

إن الله لا يحب أن يستخدم العنف معك . ولكن إذا كان هذا العنف ـ فى حدود احتمالك ـ نافعاً لك روحياً ، فلا مانع منه إلى حين ...

ونفس الوضع نقوله من جهة المدة . الله يحددها حسب الصالح ... هناك طعام لا يحتمل سوى ربع ساعة على النار لكى ينضج ، بينما طعام آخر قد يحتاج انضاجه إلى ساعتين أو أكثر ...

فلا تفقد رجاءك لطول المدة . إن ذلك لخيرك ...

* * *

أما ان كنت ضعيفاً ولا تقدر ، فالله قادر أن يعينك .

إن سعى الله لخلاصنا ، ليس معناه أن نأخذ موقفاً سلبياً على طول الخط ، وعمل النعمة لا يساعد على الكسل . فأمامنا قول الرب : « كم مرة أردت ... ولم تريدوا ... » (متى ٢٣ : ٣٧) . قل له : « توبنى فأتوب » « أرددنى فاخلص » ولكن سلّم إرادتك له . وثق انه سيعمل فيك ، وسيقويك ... وسيقودك فى موكب نصرته ، بالطريقة التى تناسب طبيعتك . وعند الله طرق كثيرة ...

* * *

وإن كان جهدك قليلاً ، كن أميناً فى هذا القليل .

إن صاحب الوزنتين سرّبه الله ، وأعطاه نفس الطوبى التى نالها صاحب الخمس وزنات (متى ٢٥ : ٢٣ ، ٢١) . وقال له كما قال لذاك : « ادخل إلى فرح سيدك » .

إن الله لا يطالبك بأكثر من جهدك ، ولا يطالبك بأكثر مما يحتمله ضعف طبيعتك . المهم أن تكون أميناً فى القليل الذى عندك .

وإن كنت لا تملك فى روحياتك حتى القليل ، الله قادر أن يعطيك . وإن كنت غير قادر على الأمانة فى القليل ، قل له اعطنى يارب القدرة والأمانة من عندك .

إن الله الذى نفخ فى التراب ، وجعله نفساً حية ، قادر أن ينفخ فيك ، ويجعلك روحاً حية فى ملكوته ...

* * *

الفصل الخامس

اهتمام الله بالأشياء الصغيرة

"انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار"

(متى ١٨: ١٠)

ألقيت هذه المحاضرة فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٨ / ٨ / ١٩٧٨ .

كثيراً ما ينظر البعض إلى حياة القديسين ، وإلى القمم العالية التى وصلوا إليها فى حياة الروح ، وإلى عمق الصلة التى عاشوا فيها مع الله ...

وهنا يشعر الإنسان بصغر نفس ويتساءل : هل يمكن أن أكون مقبولاً أمام الله ، وأنا فى هذا المستوى الضعيف ، وليس لى شيء على الاطلاق مما وصل إليه القديسون ؟!

هل يمكن أن يقبل الله حياتى البسيطة الصغيرة التافهة ... التى إذا قيست بسير القديسين تكون لا شيء .. ؟!

هنا وأريد أن أحدثكم عن الله ، الذى هو إله الصغار ... الله الذى اهتم بالأشياء الصغيرة جداً ، وجعل لها قيمة كبيرة قدامه ... والذى قيل عنه لتعزيتنا :

« المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المزبلة ، لكى يجلس مع رؤساء شعبه » (مز ١١٣ : ٧ ، ٨).

الله الذى اختار أناساً صغاراً لم تكن لهم قيمة عند الناس ، ولكن الله كان يعرف قيمتهم ، أو هو جعل لهم قيمة . وامتدت يد الله فرفعتهم .

* * *

١ - اختار الصّغار فى السّن ..

وهكذا قال داود عن نفسه : « صغيراً كنت فى اخوتى ، ومحتقراً كنت عند بنى امى » . كان كذلك عند اخوته . ولكن ماذا فعل الله ؟

أخذ داود الصغير من بين الغنم ، وجعله مسيحاً للرب

عندما دخل صموئيل النبي ليمسح ملكاً من بيت يسى البيتلحمى ، عرض عليه يسى ابناءه الكبار السمان... عرض عليه اليآب الطويل القامة الحسن المنظر، فقال الرب قد رفضته . ثم عرض عليه ابيناداب وشمه وباقي السبعة ، فكان النبي يقول عن كل منهم « وهذا أيضاً لم يختره الرب » (١ صم ١٦ : ٥ - ١٠) ... واخيراً قال يسى :

« بقى بعد الصغير . وهوذا يرعى الغنم » (١ صم ١٦ : ١١) .

نعم هذا الصغير الذى احتقره أبوه ، وتركه مع الغنم دون أن يسمح له بحضور الحفل الذى يشرفه النبى العظيم صموئيل ... هذا الصغير هو الذى اختاره الرب ليكون له مسيحاً ...!

وحلّ روح الرب على داود الصغير من ذلك اليوم فصاعداً ، وصار رجل المزامير، رجل المزمار والقيثارة والعشرة الأوتار، وواحداً من أشهر أنبياء العهد القديم . حقاً إن الله لا ينظر إلى الأعمار ولا إلى المنظر الخارجي . وكثيراً ما اختار الصغار.

* * *

وكما اختار الله داود الصغير، اختار أيضاً يوسف الصديق صغير اخوته .

وجعله ملكاً عليهم جميعاً ، وعلى غيرهم . وأتى اخوته إليه ، وسجدوا عند قدميه وهو صغيرهم ..! **كما جعله أيضاً أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر» (تك ٤٥ : ٨) .**

* * *

واختار أيضاً أرمياء النبى الصغير الذى قال : « لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» (أر ١ : ٦) .

وقال له الرب : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك . وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب ... ها قد جعلت كلامى فى فمك . انظر. قد وكلتك اليوم على الشعوب والممالك ... ها قد جعلتك اليوم مدينة حصينة ، وعمود حديد . وأسوار نحاس على كل الأرض ، لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض» (أر ١ : ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٨) .

* * *

نجد أن أحب التلاميذ إلى المسيح كان يوحنا أصغرهم سناً...

وهو الذى جعله الرب أحد الأعمدة الثلاثة فى رسله (غل ٢ : ٩) . وأطال عمره أكثر من جميعهم، وكشف له رؤى السماء، وجعله كاتب الإنجيل المملوء باللاهوتيات .

ولعل من الصغار الذين أكرمهم الرب **القديس مرقس الرسول** الذى كتب أول الأناجيل . وكان شاباً صغيراً حدثاً فى فترة كرازة السيد المسيح على الأرض، وبدأ حياته خادماً مع القديس بولس والقديس بطرس .

وبولس الرسول اختار شاباً صغيراً ليخدم معه ، هو **تيموثاوس** الذى صار أسقفاً لأفسس، وقال له : **« لا يستهن أحد بحداثتك » (١ تى ٤ : ١٢) .**

* * *

ومن الصغار الذين اختارهم الرب القديس العظيم الأنبا بيشوى .

اختاره الملاك من بين اخوته ليكون نذيراً للرب ، وكان انحفهم جسماً ، واضعفهم وأصغرهم . وعرضت أمه على الملاك أن يختار أحد أخوته الكبار الأقوياء ليخدم الرب بقوة . ولكن هذا الصغير النحيف الضعيف كان هو الذى اختاره الرب ليكون « الرجل الكامل حبيب المسيح الذى غسل قدمىّ مخلصنا الصالح » ...

لا تقل أنا صغير . فعجيب هو الرب فى اختياره للصغار ..

القديس أثناسيوس الرسولى كان شاباً صغيراً فى مجمع نيقية .

وكان فى هذا المجمع المسكونى العظيم ٣١٨ من أشهر الآباء الأساقفة فى العالم المسيحى . ومن حيث الرتبة كان أثناسيوس مجرد شماس . ومع ذلك وضعه الله فى القمة . واعطاه القوة فى الانتصار على أريوس وفى دحض بدعته، وفى صياغة قانون الإيمان المسيحى .

وصار هذا الشماس الصغير أعظم اللاهوتيين فى تاريخ الكنيسة ...

وفى تاريخ الرهبنة ، من أشهر الصغار العظام القديس تادرس تلميذ الأنبا باخوميوس، والقديس يوحنا القصير، والأنبا ميصائيل السائح .

لقد سمح أن يكون الشاب الصغير تادرس هو المرشد الروحي فى كل أديرة القديس باخوميوس الكبير، بل هو الذى أسس كثيراً من هذه الأديرة، وعين المسئولين فيها... كذلك اختار الرب شاباً صغيراً آخر ليكون المرشد الروحي فى برية شيهيت، ذلك هو القديس يوحنا القصير، الذى قيل عنه أن الأسقيط كله كان معلقاً باصبعه. وكان الرهبان يجلسون حوله و يستفيدون من تعليمه... وكان شاباً حدثاً، ولكن له نعمة أكثر من الشيوخ! والقديس ميصائيل صار من الآباء السواح وعمره حوالى ١٧ عاماً.

وأول دير فى برية شيهيت «دير البراموس»، تسمى باسم قديسين شابين، هما: مكسيموس ودوماديوس... ومن أشهر السواح القديس الأنبا ميصائيل الذى وصل إلى درجة السياحة وهو فى حوالى السابعة عشر من عمره...

★ ★ ★

إن الله حينما شاء هزيمة جليات، هزمه بفتى صغير.

فتى لا يعرف أن يلبس ملابس الحرب، لأنه لم يتعود عليها (١صم١٧: ٣٨، ٣٩)، بل استخدم خمس حصوات ملساء من البرية. وهذا الصغير مسحه الرب ملكاً، دون أخوته السبعة الكبار، وهكذا غنى داود أغنيته المشهورة «صغيراً كنت فى اخوتى، ومحتقراً عند بني أمي... أخوتي كبار وسمان... ولكن الله لم يسر بهم»...

★ ★ ★

«انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الأصاغر» (متى ١٨: ١٠).

اهتمام الرب بالأطفال واضح جداً فى الكتاب المقدس، فهو الذى أقام طفلاً وسط تلاميذه وقال لهم «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت الله» (لو١٨: ١٦، ١٧). وقال أيضاً «أحدك أيها الآب... لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال» (متى ١١: ٢٥). وقال «من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى، فخير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى و يغرق فى لجة البحر» (متى١٨: ٦). اعرف باستمرار أن «الحرب للرب» (اصم١٧: ٤٧)، و«ليس للرب مانع أن يخلص بالكثير أو بالقليل» (١صم١٤: ٦).

★ ★ ★

ما أعظم المواهب الروحية والذهنية والفنية التى وهبها الله للصغار.

ما أكثر مواهبه التى وهبها للأطفال والفتيان. داود النبى مثلاً: وهبه الله موهبة الشعر والموسيقى. فكان رجل القيثار والمزمار والعشرة الأوتار، وهو بعد حدث صغير، وكان يحسن الضرب على العود، ويستطيع أن يبعد الروح النجس عن شاول الملك (١صم١٦: ٢٣). وفوق كل ذلك كان رجل حرب وجبار بأس، وهو بعد فتى صغير...

* * *

والقديس الأنبا شنوده رئيس المتوحدين وهبه الله نضوجاً روحياً وهو طفل صغير.

فكان يمارس الزهد والصوم والصلاة وهو حدث صغير... إنها موهبة إلهية تدل على اهتمام الله بالصغار. وهكذا كان أيضاً القديس مرقس المتوحد يصوم إلى الساعة التاسعة وهو طفل.

* * *

والقديس تكلا هيمانوت وهبه الله صنع المعجزات وهو طفل.

إنها ليست أمراً موروثاً، وإنما هى هبة إلهية، ومواهب الله ليست قاصرة على الكبار، وإنما الصغار أيضاً يتمتعون بها. وما أكثرها فى حياة القديسين الذين بدأوا حياتهم صغاراً، لأن نعمة الله شاءت أن تعمل فيهم فى هذه السن المبكرة، كما عملت فى ارمياء الذى لم يكن يعرف أن يتكلم لأنه ولد، وكما عملت فى صموئيل الطفل، وفى سليمان وهو فتى صغير.

* * *

ونفس النضوج الروحى كان فى السيدة العذراء وهى طفلة.

العمق فى الصلاة، وفى التأمل، وفى دراسة الكتاب ... كل ذلك وهى طفلة صغيرة يتيمة تتربى فى الهيكل... وتسبحتها المشهورة (لو١: ٤٦- ٥٥) تدل على مدى حفظها للمزامير وآيات الكتاب... كل ذلك وهى صغيرة السن. ولكنها نعمة الله العاملة فى هذه الممتلئة نعمة، التى اختارها الله صغيرة، ولكن مملوءة بمواهبه.

لعل يوحنا المعمدان كان أيضاً أحد الأطفال الموهوبين .

والتفسير الوحيد لذلك هو قول الملاك المبشر عنه « ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لو١ : ١٥)... وهكذا كان الروح القدس يعمل فيه وهو بعد فى بطن أمه . لذلك استطاع أن يرتكض وهو جنين فى بطن أمه لما سمعت سلام العذراء ، بل أنه ارتكض بابتهاج ، وهو جنين (لو١ : ٤١- ٤٤) .

★ ★ ★

إن النضوج المبكر للأطفال الموهوبين ، ليس له تفسير إلا موهبة الله الغنية التى تنسكب على الأطفال بغنى لا يعبر عنه .

المهم أن المواهب التى يعطيها الله للأطفال ، تعطيك رجاء ، وتجعلك تكرر العبارة التى قالها رب المجد : « أحمدك أيها الآب ... لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال » (متى ١١ : ٢٥) ، « لأنه هكذا صارت المسرة أمامك » .

★ ★ ★

ماذا نقول عن النضوج المبكر لاثناسيوس وطفولته العجيبة ؟

ليس شيئاً سوى موهبة الله التى يمنحها للأطفال بغنى مذهل ، قد تحار فيه العقول البشرية ، وتعللها بأسباب شتى . ولكنها تستريح من حيرتها إن وضعت أمامها عبارتين ، هما : « موهبة الله » و« محبة الله للأطفال » .

هو القديس أثناسيوس الذى لقبوه بالرسولى ، و هو أصغر من جلس على كرسى مارمرقس ، وهو أعظم من جلس على هذا الكرسى ، وكان بطلاً عظيماً من أبطال الإيمان ، وهو بعد شاب . وصار بطريركاً وهو فى حوالى الثلاثين . ووضع كتباً عظيمة مثل « تجسد الكلمة » و« الرسالة إلى الوثنيين » وهو شاب صغير .

★ ★ ★

إننا نسعد جداً ، ونمتلىء بالرجاء ، حينما نعرف أن نضوج الأطفال المبكر سببه موهبة الله ومحبته .

فالله الذى كان مع هؤلاء الأطفال وأعطاهم بغنى من مواهبه ، هو أيضاً قادر أن يعطينا . المهم أن نتضع ونصير مثل الأطفال حسب وصيته ، ونقف أمامه فارغين

★ ★ ★

نكتفى بهذه الأمثلة عن الصغار فى السن ، ونتكلم عن :

* * *

٢- الصّغار فى العَــدد

لقد اختار الله الصغار فى العدد ، لكى يبارك أو يصنع بهؤلاء الصغار عجباً ...

اختار الله الخمس خبزات والسمكتين ليصنع معجزة عظيمة .

إنه لم يحتقر هذه الكمية الصغيرة ، إنما باركها ، واطعم بها خمسة آلاف من الرجال . وحتى هذا القدر الضئيل كان يحمله غلام صغير (يو ٦ : ٩) . وفى معجزة اشباع الأربعة آلاف من سبعة أرغفة كان معهم « قليل من صغار السمك » (مر ٨ : ٧) . وبهذا القليل ، وبهذه الصغار ، أشبع الرب تلك الآلاف من الناس ..

واختار الله هذه القلة الضئيلة ، ليعطى رجاء لكل قلة ضئيلة .

إن الله يبارك القليل فيصير كثيراً . إن العدد ليس هو المهم ، إنما الأهمية كلها هى فى البركة التى فى هذا العدد . وبهذه البركة يصنع الله عجباً .

ففى خدمتك لا تيأس من قلة مواهبك . وقل له « استخدمنى لاطعامهم كأننى من صغار السمك » .

* * *

انظروا فى مثل الزارع : ماذا قال الرب عن الزرع الذى كان فى الأرض الجيدة ؟ لقد قال :

« فأعطى ثمراً : بعض مئة ، وآخر ستين ، وآخر ثلاثين » (متى ١٣ : ٨) .

نحن نعقل يارب أن الزرع الذى يعطى مئه هو زرع جيد . ولكن هل يقال كذلك عن الذى يعطى ستين؟ وهل يسمى جيداً من يعطى ثلاثين؟! وهل هذا الانتاج الضئيل هو مقبول عند الله ؟

ولعل الرب يجيب : مادامت الأرض أعطت ثمراً ، إذن فهى أرض جيدة ، حتى إن أعطت ثلاثين ...

لذلك لا ييأس ولا يفقد الرجاء ، أصحاب الثلاثين . إن الله يقبل هذا القليل منهم ، مادام هذا هو جهدهم . و يبارك الرب هذا الجهد كأنه شيء كثير. انظروا ماذا نقول في أوشيّة القرابين :

أصحاب الكثير وأصحاب القليل . والذين يريدون أن يقدموا وليس لهم .

مجرد هذه الرغبة ، حتى من غير عطاء ، هي شيء مقبول عند الله ، الذى لا يحتقر الشيء القليل . عجيب هو الرب في أحكامه ، وفي قبوله للقليل . يذكرني هذا بقول أحد القديسين :

العنقود وإن كانت فيه حبة واحدة ، لا تزال فيه بركة .

ونفس هذا المعنى كرره اشعياء النبي (اش ٦٥ : ٨) .

إن الله يعمل في القليل ، لكي لا نفتخر نحن بقوتنا ، ونظن أننا ننتصر بالكثرة وليس بقوة الله ، فيكسرنا هذا الفكر.

* * *

وهذا واضح من قصة الحرب التى دخلها جدعون بعدد قليل ...

كان جدعون قد جمع من الشعب جيشاً كبيراً من اثنين وثلاثين ألفاً ليحارب المديانيين . ولكن الرب قال له : « هذا الشعب كثير عليّ لأدفع المديانيين بيدهم ، لئلا يفتخر إسرائيل عليّ قائلاً : يدى خلصتني » (قض ٧ : ٢) . وظل الرب يغربل هذا العدد الكبير حتى وصل إلى ثلاثمائة جندى فقط .

و بارك الله في هذا العدد القليل ، فانتصر على جيش المديانيين الذى كان منتشراً كالجراد على الأرض . وماذا أيضاً :

* * *

لما أراد الرب الكرازة بالإنجيل اختار لذلك اثني عشر رسولاً فقط ..

واستطاع هؤلاء ـ على الرغم من قلتهم ـ أن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (مر ١٦ : ١٥) ـ وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم .

فلا تقل مطلقاً نحن قلة . فإن الله يبارك القليل فيصير كثيراً .

من ثمانية أنفس فقط فى الفلك ، أعاد الله تكوين البشرية من جديد . ولم يختر لغرضه سوى هذا العدد الضئيل ...

ومن ابن واحد هو اسحق ، استطاع الله أن يأتى بنسل مثل نجوم السماء ورمل البحر فى الكثرة ...

وكما تحدثنا عن اهتمام الله بالصغير فى السن ، وبالقليل فى العدد ، ومباركته هذا وذاك ، ننتقل إلى نقطة أخرى وهى :

★ ★ ★

٢ـ الاهتمام بالقليل فى النوعيّة

لما شاء الله أن يهزم جليات الجبار ، هزمه بحصاة ملساء فى مقلاع صبى صغير هو داود .

فلا تفقد أنت رجاءك ، ولا تقل مواهبى قليلة ، وأنا صغير ، ضئيل الشأن ، لست على مستوى قوة مَنْ يبغضوننى . فلتكن حصاة صغيرة فى مقلاع الرب . وليعمل الرب بك عملاً ، مهما كان جهدك قليلاً .

لأن « الحرب للرب » (١ صم ١٧ : ٤٧) . و « ليس لدى الرب مانع عن أن يخلص بالكثير أو بالقليل » (١ صم ١٤ : ٦) .

★ ★ ★

أنظر كيف نشر الله ملكوته على الأرض ... إنه لم يختر لذلك جماعة من الفلاسفة أو العلماء أو الجبابرة ، بل اختار مجموعة من الصيادين البسطاء ، وعمل فيهم وبهم ... وكما قال الرسول :

« اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء . واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء . واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ، ليبطل الموجود ، لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه » (١ كو ١ : ٢٧ ـ ٢٩) .

ونحن نقف أمام هذه العبارة مبهورين .. ! قد تعبر فى فهمنا كلمة الجهال والضعفاء... لكن ماذا عن المزدرى وغير الموجود ؟! ... ما هذا العجب ؟ كيف يمكن للرب أن يختار المزدرى وغير الموجود ؟!

لا شك أن هذه العبارة تحيى الرجاء فى نفس كل إنسان ، مهما كان ضعيفاً ، ومهما كان بلا مواهب وبلا امكانيات وبلا قدرات من كل ناحية ...

لذلك إن حوربت باليأس قل له : اعتبرنى يارب ضمن المزدرى وغير الموجود ، ولا تحرمنى من العمل معك ... ليكن لى كيان قدامك ، مع أننى فى نظر نفسى - وربما فى نظر الناس - مزدرى وغير موجود ...

ربما يظن البعض أن السيد المسيح لو كان قد جاء فى أيامنا ، لكان يختار أصحاب الشهادات العالية جداً واساتذة البحوث !

كلا ، صدقونى ، لأنه لا يحب أن يفتخر كل ذى جسد أمامه ، ولئلا تنسب البشارة إلى العقل البشرى وليس إلى عمل الروح القدس. فلو كان المسيح جاء فى أيامنا ، ما كنت استغرب أن يختار بعضاً من البسطاء كما فعل من قبل ، أو مجموعة من عمال التراحيل ...

فليس مصدر القوة هو الإنسان وإنما روح الله العامل فيه .

والله يحب أن يستخدم الصغار ، لكى لا يفتخروا ، ولكى لا ييأس أحد من عمل الله فيه . فلا يفشل أحد ، ولا تصغر نفس إنسان ما .

الله نشر الكرازة باثنى عشر رجلاً ، وما كانوا أصحاب مواهب .

بل كانت غالبيتهم من الصيادين ، إنما المهم هو عمل الله فيهم . والثالث عشر الذى هو بولس ، لم يعتمد على الثقافة والمواهب ، بل قال لأهل كورنثوس «وأنا لما أتيت إليكم أيها الأخوة ، أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة» (١كو٢ : ١) . لماذا ؟ يقول «ليس بحكمة كلام ، لئلا يتعطل صليب المسيح» (١كو١ : ١٧) ، لئلا تحسب المسيحية فلسفة ، أو ينسب نجاح الكرازة إلى الحكمة وليس إلى عمل النعمة .

* * *

إن باب الملكوت مفتوح للكل ، وكذلك باب الخدمة ...

ليس فقط للذين يقولون إنهم وصلوا إلى الملء ، ويتكلمون بألسنة !! ولهم المواهب ، ويرتعشون فى الصلاة..! بل إن باب الملكوت مفتوح أيضاً أمام المبتدىء ، الحديث فى العمل الروحي ، الذى لا يعرف أن يتكلم لأنه ولد (أر ١ : ٦) .

فلا يظن أحد أنه إن لم يصعد إلى القمة فى الروحيات ، فهو لم يصل بعد إلى الله !

ولا تحتقروا أمثال هؤلاء الذين لم يصلوا إلى القمم . ولا تصغر نفوس هؤلاء ، فإن الله يعمل فى الكل ، ويستخدم حتى « القليل من صغار السمك » ...

وما أجمل العبارة المعزية التى قالها القديس يوحنا المعمدان :

إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم (لو ٣ : ٩) .

وإلى مَنْ ترمز الحجارة ؟ إلى صم بكم لا يتحدثون ، بلا حركة وبلا حياة... هؤلاء ، الرب قادر أن يقيم منهم أولاداً لإبراهيم .

إذن لا تفقد رجاءك مطلقاً ، مهما كنت بلا حياة . فأنت ولا شك أفضل من حجارة كثيرة ...

* * *

أمامنا مثل آخر واضح فى ميلاد المسيح يدل على اهتمام الله بالصغار :

لقد وُلد فى مزود بقر ، وليس فى قصر ضخم . وولد فى قرية صغيرة هى بيت لحم ، وليس فى المدينة العظمى أورشليم .

واستطاع أن يحوّل المزود إلى مزار عالمى ومقدس من المقدسات الكبرى . أما بيت لحم فقال لها : من الآن فصاعداً « لست الصغرى بين رؤساء يهوذا » (متى ٢ : ٦) . رفعها فوق بلاد كثيرة ، ومنحها قيمة بميلاده فيها .

ولعل هذا يذكرنا بدعوة الرب لجدعون ، الذى شعر بصغر نفس ، لضآلة أصله وبلده ، فقال :

ها عشيرتى هى الذلى فى منسى ، وأنا الأصغر فى بيت أبى (قض ٦ : ١٥) .

ولكن الرب كان يبحث عن هذا الأصغر ، ليظهر مجد الله فيه .

لذلك لا تفقد رجاءك إن كنت صغيراً . إن كنت مزوداً ، أو قرية صغيرة ، أو كنت الأصغر فى بيت أبيك ، أو إن كانت عشيرتك هى الذلىّ بين باقى العشائر... ! إن الله قادر أن يعمل فيك ، و يرفع شأنك فتصير شيئاً آخر ما كنت تفكر فيه ...

إنه موقف يشجع الضعفاء والمساكين ، الصغار والأذلاء ...

★ ★ ★

انظروا فى اختيار موسى النبى ، تروا موقفاً عجيباً ... كان موسى «ثقيل الفم واللسان... وليس صاحب كلام لا من اليوم ولا أمساً ، ولا قبلاً من أمس» (خر ٤ : ١٠) .

ومع ذلك اختار الله هذا الثقيل الفم واللسان ليكون كليم الله ..

لم ينزع منه هذا النقص ، وإنما أرسل له هارون أخاه ، لكى « يكون له فماً » وقال الله لموسى : «وأنا أكون مع فمك ، واعلمك ما تتكلم به» (خر ٤ : ١٦ ، ١٢) . و بهذا الإنسان الثقيل الفم واللسان ، أذل الله فرعون ...

إن قلة المواهب لا تعوق عمل الله ، ولا تدعو الإنسان أن يفقد الرجاء فى القدرة على القيام بالمسئوليات ... فباستمرار ثق بالله الذى قيل إنه «يعطى المعيى قدرة ، ولعديم القوة يكثر شدة» (إش ٤٠ : ٢٩) .

★ ★ ★

إن الله يستخدم الصغار والضعفاء . وهنا نسأل سؤالاً : عندما قاد الله يونان النبى إلى التوبة والصلح معه ، بماذا هداه ؟

استخدم الله فى هداية يونان : الدودة ، واليقطينة ، والريح والموج ، وأشعة الشمس . فكانت كل منها تؤدى رسالة إلهية ... (يون ١ ، ٤) .

اليقطينة التي بنت ليلة كانت ، وبنت ليلة هلكت ، استخدمها الله في تحقيق مقاصده ، وكذلك الدودة التي لا قيمة لها عند أحد !

قل له : احسبني يارب دودة ، احسبني يقطينة ، احسبني موجة ، احسبني شعاعاً . فلأكن أي شيء مهما كان تافهاً في ملكوتك ، ولكن يصنع مشيئتك .

وإن كنت دودة لا تفقد رجاءك ، سيكون لك دور عند الله ... وإن كنت يقطينة ، لا تصغر نفسك . سيأتي وقت تعطى فيه درساً لنبي كيونان ، ويُكتب إسمك في كتاب الله ... !

★ ★ ★

٤- اهتمام الله بالأشياء الصغيرة

اهتم الله بالأطفال ، وتحدث عنهم بكل حب وتقدير ..

كان يحتضنهم ويعطف عليهم ويقول « دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » (متى ١٩ : ١٤) .

وأخذ ولداً وأقامه في الوسط ، وقال لتلاميذه « إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد ، فلن تدخلوا ملكوت السموات . فمَنْ وضع نفسه مثل هذا الولد ، فهو الأعظم في ملكوت السموات . ومَنْ قبل ولداً واحداً مثل هذا بإسمي فقد قبلني » (متى ١٨ : ٢ - ٥) .

واهتم بنفسية هؤلاء الصغار ، والبعد عن إعثارهم ، فقال :

مَنْ أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي ، فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ، ويغرق في لجة البحر» (متى ١٨ : ٦) .

إن الله يهتم بالصغار من كل نوع ، سواء في سنهم ، أو في روحياتهم ، أو نوعيتهم عموماً ، أو في ضآلتهم وضعفهم . رعايته تشمل الكل .

★ ★ ★

لقد اهتم حتى بالقصبة المرضوضة وبالفتيلة المدخنة ..

فقيل عنه فى الإنجيل « قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لا يطفىء » (متى ١٢ : ٢٠). إنه يعطى رجاء لكليهما. فالقصبة المرضوضة قد تربط وقد تعصب. والفتيلة المدخنة قد يرسل لها ريحاً فتشعلها.

والشجرة التى لم تعطِ ثمراً ، أعطاها رجاء وفرصة أخرى .

فلما امتدت الفأس لتوضع على رأس هذه الشجرة ، قال فى حنوه « اتركها هذه السنة أيضاً ، حتى انقب حولها وأضع زبلاً. فإن صنعت ثمراً ، وإلاَّ ففيما بعد تقطعها » (لو ١٣ : ٧ - ٩). إنه لم يقطع الرجاء حتى بهذه التى استمرت ثلاث سنوات بلا ثمر.

* * *

وهو يعطى قيمة حتى للنملة الصغيرة ، ويقدمها درساً للبشر ...

فيقول : « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيماً ... » ونحن نقول : ما هى هذه النملة يارب حتى تخلصها ، وتمنحها هذه الطبيعة النشطة ، وتضرب بها المثل فيما وهبتها إياه من نشاط ومهارة وقدرة ...؟! وكأن الله يجيبنا و يقول :

لا تظنوا انى فقط خالق التنانين ، وإنما أيضاً خلقت الحشرات والهوام وأرعى هذه وتلك.. وأهتم حتى بالعصافير التى يباع اثنان منها بفلس واحد. وأعطى طعاماً لفراخ الغربان التى تدعونى (مز ١٤٧ : ٩). عجيب هو الرب الذى يخلق هذه الأشياء الصغيرة و يهتم بها. بل يهتم حتى بالدودة التى تسعى تحت حجر، و بالزنبقة التى يُلبسها أفضل من سليمان فى كل مجده (متى ٦ : ٢٩).

* * *

إنه يضرب لنا مثلاً للإيمان وللملكوت السموات بحبة الخردل التى هى أصغر جميع البذور.

فيقول يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله ، وهى أصغر جميع البذور. ولكن متى نمت فهى أكبر البقول ، وتصير شجرة ، حتى إن طيور

السماء تأتى وتتآوى فى أغصانها » (متى ١٣ : ٣١- ٣٢).

ويقول أيضاً « الحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة الخردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل. ولا يكون شيء غير ممكن لكم » (متى ١٧ : ٢٠).

إذن لا تفقد رجاءك ولو كان إيمانك صغيراً كحبة الخردل .

إنه يمكن أن ينمو ويصير شجرة تتآوى إليها الطيور . والله يقبل هذا الإيمان ويباركه. وأيضاً ...

* * *

فى الإيمان والملكوت يضرب مثلاً بخميرة صغيرة تخمر العجين كله .

فيقول : « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها إمرأة ووضعتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع » (متى ١٣ : ٣٣). وقد تذكر بولس الرسول هذا المثل فقال لأهل غلاطية : « خميرة صغيرة تخمر العجين كله » (غل ٥ : ٩).

إذن لا تفقد رجاءك مهما كان إيمانك قليلاً ، ومهما كان عملك ضئيلاً ، فالله يقبل القليل ويباركه ليصير كثيراً.

* * *

إن الرب قد أعطى فى ملكوته رجاء حتى للعرج والجدع ...

فقال لعبده بعد أن أعد الوليمة العظيمة « اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وازقتها ، وادخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمى » (لو ١٤ : ٢١).

بل قال أيضاً كوصية : « إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجدع العرج العمى. فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافئوك » (لو ١٣ : ١٣). فإن حوربت بفقد الرجاء ، تذكر هؤلاء الذين ليس لهم ، والذين قبلهم الرب بدون مقابل ...

* * *

هنا ونذكر ملاحظة هامة فى معجزة الخمس خبزات والسمكتين :

إن الله اهتم بالكسر ، فأمر بجمعها ، وحملها الرسل ..

لعلك تقول ليتنى كنت خبزة فى يد الرب ، يباركها و يطعم بها الألوف ، وهكذا يمكننى أن أصلح لشيء فى الخدمة ! أقول لك : حتى لو لم تكن خبزة ، وكنت مجرد كسرة ملقاة على الأرض لم تجد من يأكلها ... ستسمع قول الرب « اجمعوا الكسر » وسيأتى وقت تستطيع فيه أن تشبع الآخرين .

إذن إن كانت أعمالك الروحية ضعيفة ، قل له فى اتضاع : ادخلنى يارب مع المساكين والجدع والعرج والعمى إلى ملكوتك . وكما اهتممت بجمع الكسر فى معجزة الخمس خبزات والسمكتين ، اعتبرنى أنا أيضاً من هذه الكسر ، ليأخذنى رسلك معهم فى سلالهم وقففهم . أنا يارب من هذه الكسر . اجمعنى فى سلتك المباركة .

* * *

لا تظن انه يجب أن تصعد إلى أعلى ، لكى تقابل الله .

بل إنك كلما شعرت أنك لا شيء ، ولا استحقاق لك على الاطلاق ، وهبط قلبك إلى أسفل ، فهناك تلتقى بالله .

وهكذا كلما نزلت إلى أسفل صعدت إلى أعلى .

حقاً إن الإنسان يصعد فى هبوطه ، ويهبط فى صعوده ..

وقد قال الرب فى ذلك « كل مَنْ يرفع نفسه يتضع . ومَنْ يضع نفسه يرتفع » (لو ١٣ : ١١) .

* * *

لقد ضرب لنا ثلاثة أمثلة فى اهتمامه بالصغار فى الاصحاح الخاص بقبوله للتائبين وبحثه عنهم (لو١٥) .

رجوع الابن الضال بانسحاق قلب ، قابله الرب بفرح كبير ، ومكافآت عديدة ... ثم ماذا عن الخروف الضال ؟ من ذا الذى يستطيع أن ينظر إلى حظيرة فيها مائة خروف فيلمح أنها مجرد ٩٩ ، و يبحث عن الواحد الناقص إلى أن يحمله على منكبيه فرحاً ، بل من ذا الذى يهتم بدرهم واحد مفقود ، و يظل يبحث عنه حتى يجده ، و يفرح بوجوده . ألا يعطيك هذا رجاء فى عمل الله من أجلك ! هو يبحث عنك ، إن لم تبحث أنت عنه ...

ومن اهتمام الله بالصغار ، اهتمامه بقرية بيت لحم الصغيرة .

هذه التى قال لها الوحى الإلهى « وأنت يا بيت لحم ... لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ، لتكونى قدساً ومكاناً للميلاد المجيد ... »

ومن اهتمامه بالصغار ، اختياره ليئة المكروهة الضعيفة العينين (تك ٢٩ : ١٧ ، ٣٣) .

ليئة هذه التى كانت صغيرة القدر والمكانة بالنسبة إلى أختها راحيل ، هى التى اختارها الرب لتكون أماً ليهوذا سبط الملوك ، وأماً للاوى سبط الكهنوت ، وجدة للمسيح ، فأتى من نسلها ولم يأت من نسل راحيل ...

* * *

بل اختار الرب راحاب الزانية وكذلك ثامار ضمن سلسلة الأنساب ، واختار راعوث الموآبية ضمن سلسلة الأنساب أيضاً (متى ١ : ٣ ، ٥) ... بل اختار مريم المجدلية التى كان عليها سبعة شياطين لتكون مبشرة للرسل (مر ١٦ : ٩ ، ١٠) . بل أنه اختار التراب ليجعل منه صورته ومثاله . فلا تيأس إذن من عمل الله معك واختياره لك ...

* * *

إنه « المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المزبلة ، ليجلسه مع رؤساء شعبه » (مز ١١٢) .

إذن الله قادر أن يقيمك مهما كانت حالتك ، بل يرفعك أيضاً لتجلس مع رؤساء شعبه أليس هو الذى لا يحتقر قصبة مرضوضة ، ولا فتيلة مدخنة ، يأمر بتشجيع صغار النفوس ، وأن نسند الضعفاء ونتأنى على الجميع » (اتس ٥ : ١٥) . بل ما أجمل قول الكتاب « قوموا الأيادى المسترخية والركب المخلعة » (عب ١٢ : ١٢) ، حتى إن كنت من هذا النوع ، سوف لا يهملك الله ، بل سيرسل لك من يقومك ...

* * *

بل خذ مثال اهتمامه بالعصفور ، كرمز لاهتمامه بك .

إنه يقول « أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منهما لا يسقط على الأرض

بدون أبيكم » (متى ١٠ : ٢٩) فالذى يهتم بالعصفور لا شك يهتم بك أيضاً . ولذلك يقول بعدها مباشرة « وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جيعها محصاة . فلا تخافوا ، أنتم أفضل من عصافير كثيرة » (متى ١٠ : ٣٠) .

و يعجب الرب بالعصافير فى إيمانها بأن الله يقوتها و يقول فى ذلك « انظروا إلى طيور السماء . إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوى يقوتها » (متى ٦ : ٢٦) . وهكذا يذكرها و يضرب بها مثلاً لنا ، هى « وفراخ الغربان التى تدعوه » (مز ١٤٧ : ٩) .

إنه يهتم بالدودة التى تسعى تحت حجر، و يعطيها طعامها ...

كم بالأولى أنت ، يعطيك طعام الروح ، وطعام الجسد أيضاً . أليس الإنسان أفضل من ديدان كثيرة ؟! الدودة الصغيرة استخدمها الله ليعطى درساً ليونان النبى ، حينما أعدها الله لتضرب اليقطينة (يون ٤ : ٧) . حسن أن هذه الدودة ذكرت فى الكتاب المقدس ، وهى تؤدى رسالة تؤول إلى توبة نبى .

* * *

٥- الله يهتم بالعمل الصغير

إنه لا ينسى كأس الماء البارد الذى تقدمه لعطشان .

وقد قال فى ذلك : « مَنْ سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ ، فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره » (متى ١٠ : ٤٢ ؛ مر ٩ : ٤١) .

مجرد كأس ماء بارد ، لم تتعب فيه ، ولم يكلفك شيئاً ، هذا لا يضيع أجره . إذن لا تيأس إن كانت أعمالك

* * *

هناك أعمال أنت تعملها وتنساها لضآلتها . والله لا ينساها . حتى إن كانت فى نظرك بلا قيمة ، هى عند الله لها قيمتها ، و يكافئك عليها فى اليوم الأخير. وحسن انك نسيتها لتأخذ أجرها كاملاً هناك .

لقد مدح الرب ملكة التيمن لمجرد أنها زارت سليمان .

وقال : « ملكة التيمن ستقوم فى (يوم) الدين مع هذا الجيل وتدينه ، لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان. وهوذا أعظم من سليمان ههنا » (متى ١٢ : ٤٢). وبنفس الوضع مدح أرملة صرفة صيدا لأنها استضافت إيليا النبى فى وقت المجاعة (لو ٤ : ٢٥ ، ٢٦) .

* * *

ولم ينس الرب زيارة نيقوديموس ، مع أنها كانت ليلاً وبخوف ...

وسمح أن تسجل هذه الزيارة فى الإنجيل (يو ٣) . وهذا الإيمان الخائف المتخفى الذى كان لنيقوديموس ، باركه الرب ونماه حتى سمح له أن يكفنه. وصار نيقوديموس من مشاهير المسيحيين فيما بعد ، وصار جندياً صالحاً فى ميدان الخدمة ...

ولم ينس الرب لزكا مجرد صعوده على الجميزة ليراه .

ربما لم يحس زكا أن هذا عمل كبير يكافأ عليه من الرب . ولكن الله الذى يهتم بكل عمل مهما كان صغيراً ، وقف ونادى زكا ، ودخل بيته. وقال له : « اليوم حدث خلاص لأهل هذا البيت إذ هو أيضاً ابن لإبراهيم » (لو ١٩ : ٩) .

هل كان يخطر على بال زكا أن الرب سيقدر صعوده إلى الجميزة كل هذا التقدير؟! أم هو الرب الذى يهتم بالعمل مهما كان صغيراً .

* * *

إنه لم ينس مطلقاً عبارة اتضاع تلفظت بها المرأة الكنعانية .

وطوبها قائلاً لها « عظيم هو إيمانك . ليكن لك كما تريدين وشفى إبنتها فى تلك الساعة » (متى ١٥ : ٢٨) كذلك لم ينس لشعبه مجرد خروجهم وراءه فى البرية (أر ٢ : ٢) ، مع أنهم كانوا فى البرية متذمرين وقساة القلوب . قال لشعبه :

« قد ذكرت لك ... ذهابك ورائي فى البرية » (أر ٢ : ٢) .

قال هذا على الرغم من أخطاء هذا الشعب فى البرية ، وعلى الرغم من تذمره وجحوده .. ولكن مجرد خروجه وراء الرب ليعبده فى البرية لم ينسه الرب

وقال لتلاميذه : « أنتم الذين ثبتم معى فى تجاربى » (لو ٢٢ : ٢٨) .

مع أن ثباتهم كان ضعيفاً ، هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يسهروا معه ساعة واحدة (متى ٢٦ : ٤٠) والبعض منهم خاف وهرب ... ساعة القبض عليه ، وبطرس انكره ثلاث مرات ، ولم يقف معه عند الصليب سوى واحد فقط هو يوحنا ، إلا أن مجرد سيرهم وراءه وتمسكهم به كمعلم لهم ، كل هذا الذى كان فى نظرهم شيئاً بسيطاً لم ينسه الرب مطلقاً . وبنفس الاسلوب

* * *

وامتدح الرب الذين جاءوا فى الساعة الحادية عشرة .

مع أنهم جاءوا فى آخر النهار ، ولم يعملوا سوى ساعة واحدة . ولكنه مع ذلك قبل منهم هذه الساعة ، وأعطاهم أجرة كالباقين . ولم يرفض هذه الساعة ، بل امتدحها . على الأقل تدل على أنهم مثمرون وقادرون على العمل .

* * *

وكما قبل القليل من هؤلاء ، قبل أيضاً فلسى الأرملة .

ومدحها ، وقال إنها أعطت أكثر من الجميع ، لأنها أعطت من أعوازها (مر ١٢ : ٤٤) . وقد يكون الفلسان شيئاً تافهاً . ولكن الاعطاء من العوز هو شيء كبير جداً عند الله أياً كانت الكمية المعطاة .

لذلك إن صليت مجرد دقائق من أعوازك ، يقبلها الله ...

إن ضاق بك الوقت جداً ، ولم تجد ـ مرغماً ـ سوى لحظات ترفع فيها قلبك إلى الله ، فلا تصغر نفسك ، ولا تفقد رجاءك إذ لم تستطع أن تصلى كما ينبغى ! كلا ، إن الله يفحص القلب و يعرف ظروفك ، وهل الأمر عن اهمال أو لا مبالاة أم أنك تعطى من أعوازك فى الوقت .

* * *

كانت صلاة العشار قصيرة ، جملة واحدة ، وقبلها الله ...

وخرج هذا العشار مبرراً دون الفريسى (لو ١٨ : ٩ ـ ١٤) لأنه كان يصلى من

قلبه، وبانسحاق، ولا يجرؤ أن يرفع نظره إلى فوق. فكانت الجملة الواحدة التى قالها، هى عند الله كثيرة الثمن جداً وغالية عليه. ولم يطالبه الله ببرنامج روحى طويل فوق مستواه، كما يفعل القديسون. بل اكتفى الرب بانسحاق العشار...

كذلك فإن الله قبل من اللص اليمين توبة قدمها فى آخر ساعات حياته (لو٢٣: ٤٣) ورضى من السامرية بما اعتبره اعترافاً، مع أنها لم تشرح كل شىء... (يو٤). وطوب وكيل الظلم -على الرغم من أخطائه- لمجرد اهتمامه بمستقبله(لو١٦: ٨).

* * *

لا تيأس إن كان عملك الروحي ضعيفاً وثمرك قليلاً.

لا تقل «لا فائدة. أنا لم أعمل شيئاً» وتيأس بسبب ذلك. واعلم أن الله لا ينسى أى عمل بسيط، ربما تكون أنت قد عملته ونسيته. إنه لم ينس لملكة التيمن أنها سافرت لتسمع حكمة سليمان. وبسبب هذا العمل الذى يبدو بسيطاً، قال إنها ستقوم فى يوم الدين وتدين ذلك الجيل (متى ١٢: ٤٢).

* * *

انظر فى اهتمام الرب بالعمل الصغير، قول القديس ذهبى الفم:

إن الله يجول طالباً سبباً لخلاصك، ولو دمعة واحدة...

حقاً إن الرب يرضى بالقليل مادام بروح طيبة، ومادام الإنسان أعجز من أن يفعل أكثر. ويأخذ الرب هذا القليل وينميه ويجعله كثيراً. فلا تيأس، ولا تجعل الشيطان يحاربك قائلاً: ماذا فعلت ؟! هوذا الله يطلب منك الكمال (متى ٥: ٤٨)!

نعم إن الله يطلب الكمال، ولكنه لا يطلب منك أكثر مما تقدر عليه.

إنه يضع فى حسابه لك: امكانياتك وظروفك. وهو يقبل منك التدرج... المهم أن تكون سائراً فى الطريق، وليس أن تكون وصلت إلى نهايته. وهو يعطيك فرصة ويطيل أناته عليك، لكى يقودك إلى التوبة.

ولكن طول أناة الله لا تجعلنا نتهاون ونتكاسل!

وثمرنا القليل لا يعنى أن نرضى به ونكتفى! كلا، وإنما نجاهد وننمو، ولكن فى رجاء، غير يائسين، بل طالبين من الله أن يقوى ضعفنا، ويمنحنا النعمة والمعونة لكى نعمل فى كل حين ما يرضيه...

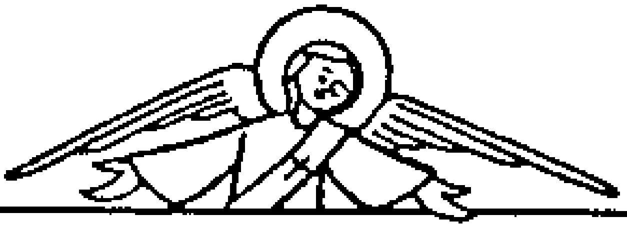

الفصل السادس

اللّـه حَنُونٌ عَطُوفٌ

فى الإنسان قسوة ، أما الله ففيه حنو ورفق ، ولذلك عندما خُير داود النبى بين ثلاث عقوبات قال عبارته الشهيرة «أقع فى يد الله، ولا أقع فى يد إنسان، لأن مراحم الله واسعة» (٢صم ٢٤ : ١٤) وهكذا نرى أن أيوب الصديق لما وقع فى أيدى أصحابه الثلاثة، اشبعوه مذمة واتهاماً، حتى قال لهم «حتى متى تعذبون نفسى وتسحقوننى بالكلام ؟! هذه عشر مرات اخرزيتمونى» (أى ١٩ : ٢، ٣) أما الله فهو رؤوف ومتحنن، ومن أمثلة تحننه.

* * *

أعطانا وصايا فى مستوى احتمالنا

تدرج معنا تدرجاً كبيراً من وصايا العهد القديم إلى كمال العهد الجديد. وقد لام الكتبة والفريسيين لأنهم يحملون الناس أثقالاً عسرة الحمل، وهم لا يريدون أن يحركوها باصابعهم وقال لهم إنهم فى ذلك قد اغلقوا أبواب الملكوت، فما دخلوا ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣ : ٤ : ١٣).

وهكذا نرى تلاميذ الرب فى أول مجمع لهم فى أورشليم الخاص بقبول الأمم، يقولون «لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم» (أع ١٥ : ١٩، ٢٠) والقديس بولس الرسول يقول لأهل كورنثوس :

« سقيتكم لبناً لا طعاماً ، لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون» (١ كو٣ : ٢).

ومن رأفة الله وعطفه، أنه حينما يعطى وصية، يعطى معها قوة لتنفيذها، فترافقنا نعمته لكيما نستطيع و يعطينا روحه القدوس ليعمل فينا، لكى نستطيع أن نعمل.

والله فى رأفته يتراءف على خليقته كلها، ليس الإنسان فحسب، بل حتى الحيوان والطبيعة.

حنو الله ورأفته على الحيوان

إن الله الذى منح الإنسان راحة فى السبت، اعطى ذلك للحيوان أيضاً، فقال «وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك... لا تعمل فيه عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك، وثورك وحمارك وكل بهائمك» (تث ٥ : ١٤).

* * *

ولم يهتم فقط براحة الحيوان بل براحة الأرض أيضاً.

فقال : ست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها... وأما فى السابعة فتريحها وتتركها» (خر٢٣ : ١٠، ١١؛ لا٢٥ : ٣-٥). وعلى الرغم من التشديد فى حفظ السبت، وعدم العمل فيه، قال الرب «من منكم يسقط حماره أو ثوره فى بئر، ولا ينشله حالاً فى يوم السبت ؟!» (لو١٤ : ٥) وقال أيضاً «من منكم له خروف واحد. فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة، أفما يمسكه و يقيمه ؟!» (متى ١٢ : ١) وقال كذلك لمن لامه على ابراء المرأة المنحنية فى يوم السبت، «يا مرائى، ألا يحل كل واحد منكم فى السبت ثوره أو حماره من المذود ويمضى به و يسقيه» (لو١٣ : ٥).

هكذا جعل انقاذ أو إطعام ثور أو حمار أو خروف استثناء واجباً من وصية عدم العمل فى السبت.

ومن شفقته على الحيوان أيضاً قال «لا تطبخ جدياً بلبن أمه» (خر٢٣ : ١٩؛ تث١٤ : ٢١) وقال أيضاً «لا تكم ثوراً دراساً» (١كو٩ : ٩). وحتى الآن الثور أثناء الدراسة لا يكمم، بل يمد فمه و يأكل كيفما يشاء، ومن اهتمام الله بالعطف على الحيوان، قال أيضاً :

« لا تحرث على ثور وحمار معاً » (تث ٢٢ : ١٠).

ذلك لأنهما ليسا بقوة واحدة فإن اسرع الثور سيرهق الحمار والله يشفق على هذا الحمار من الارهاق. وهكذا عندما دخل السيد المسيح إلى أورشليم ركب على أتان وجحش إبن اتان (متى ٢١ : ٥) حتى يريحهما فى الطريق، إذ يستبدلهما، فيركب

على الواحد و يريح الآخر وظهرت شفقة الرب على الحيوان باشفاقه على حمار بلعام وتوبيخه بلعام على ضرب حماره ظلماً» (عد ٢٢ : ٣٢).

* * *

وظهرت شفقة الرب حتى على العصافير : يحميها و يقيتها .

وهكذا يقول « أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم ؟» (متى ١٠ : ٢٩) أى بدون سماح منه لا يسقط عصفور... و يقول أيضاً «انظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها» (متى ٦ : ٢٦) وليست هى فقط ، بل يقول المزمور:

« يعطى البهائم طعامها ، وفراخ الغربان التى تدعوه» (مز ١٤٧ : ٩) .

حتى فراخ الغربان يارب ؟! نعم . فالغربان أيضاً ذكرها الكتاب ، وكانت لها رسالة ! إيليا النبى فى وقت المجاعة ، كانت الغربان تأتيه بطعام (١مل ١٧ : ٤ - ٦) وهكذا كان يحدث مع الأنبا بولا السائح ، وكما اهتم الرب بالطيور، والعصافير والبهائم «اهتم أيضاً بالخروف الضال و بحث عنه حتى وجده» (لو ١٥) .

واهتم الله بالحيوانات وبالطيور فى فلك أبينا نوح !

ادخلها جميعها فى الفلك ، ولم يهمل أحداً منها حتى الحشرات والهوام ، استبقى لها حياة لتعيش ، وكان أبونا نوح يقدم لها الطعام كل يوم.... إن فى ذلك لعجباً ... أقصد هذا العطف العجيب .

* * *

وكما يشفق الله على الحيوان فيمنحه حماية من الطبيعة ومن الافتراس .

الدب القطبى ، أو الثعلب القطبى ، يعيش الواحد منهما فى جو بارد جداً ، لذلك يمنحه الله فراء ثميناً لتدفئته ، تشتهيه النساء الثريات ، وتدفع فى شرائه ثمناً وفيراً ، أما حيوانات البلاد الحارة فلا تحتاج إلى فراء فيعفيها الرب منه ... ولأن الجمل يعيش فى الصحراء ، لذلك يعطيه الله قوة عجيبة يتحمل بها العطش والجوع ، و يعطى نفس القوة على الاحتمال للنخلة فى الصحراء .

* * *

وكما يعطى الحيوانات المفترسة مخالب وأنياب لتعيش كذلك يعطى الحيوانات الضعيفة وسيلة للهرب.

الأسد أقوى من الغزال، يستطيع أن يفترسه. ولكن الرب يعطى الغزال قوة عجيبة فى الجرى، يمكنه أن يهرب من الأسد، كذلك الكلب يستطيع أن يفترس القط. ولكن الرب يعطى القط القدرة التى يمكنه بها القفز على الأشجار والجدران فينجو من الكلب... وبنفس الطريقة يعطى العصافير خاصية الطيران فتنجو، كما يعطى الفأر القدرة على الحفر والاختباء، فينجو... ما أعجب شفقة الله.

* * *

أنظروا جمال الصوت الذى يعطيه الرب للبلابل وللطيور المغردة... انظروا جمال الشكل الذى يعطيه الرب للطاووس، بل للفراشة، أنظروا جمال الرائحة التى يعطيها الرب للورود والفل والياسمين، والأزهار العطرة. تأملوا القدرات العجيبة التى يعطيها الله للنحلة فى صنع بيوتها بهندسة دقيقة، وفى صنع الشهد من الرحيق، بل فى صنع غذاء الملكات، كل ذلك الذى يأخذه البشر منها طعاماً ودواءً... بل تأملوا النملة فى نشاطها وحركتها الدائبة... إن الله يعطى خليقته من هذه الصفات ما يكون أمثولة أمام الإنسان يشتهى أن يحاكيها.

وإن كان هذا عطف الله على مخلوقاته، فكم بالأولى على الإنسان.

حنو الله الفائق على الإنسان

يكفى أن الله أوجده بطبيعة ممتازة: له عقل وروح وارادة.

له العقل الذى استطاع أن يصل إلى الاختراع، ويصنع الأقمار الصناعية وسفن الفضاء ويصل إلى القمر، ويمشى فى الجو فى مناطق انعدام الوزن... وأعطاه الارادة الحرة التى يمكنه بها أن يفعل ما يشاء... وأعطاه الذكاء لكى يفهم... ولم يشأ الله أن ينزع الذكاء حتى من الأشرار الذين يعصونه... وفوق المواهب الطبيعية، أعطى الله

لبعض البشر مواهب فائقة للطبيعة وقدرة على صنع المعجزات ، بقوة منه ... ما أعجب ما قيل إن الإنسان خلق على صورة الله ومثاله (تك ١).

* * *

ومنح الله للإنسان الخلود والحياة الأبدية .

منحه أن تكون له حياة دائمة فى ملكوته بعد قيامة الجسد من الموت ، ووعده بالنعيم الأبدى فى عشرة الله وملائكته ، فى أورشليم السمائية «مسكن الله مع الناس» (رؤ٢١ : ٣). وقال للأبرار «حيث أكون أنا ، تكونون أنتم أيضاً» (يو١٣ : ٤) بل وعد الذين يحبونه بأن يتمتعوا بحياة عجيبة فى الأبدية ، يكفى أنها قيل عنها «ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على بال إنسان ، ما أعده الله للذين يحبونه» (١كو٢ : ٩).

* * *

ومن محبة الله للبشر أنه دعاهم ابناءه :

وفى هذا يقول القديس يوحنا الرسول «انظروا أية محبة أعطانا الآب ، أن ندعى أولاد الله» (١يو٣ : ١). وأعطانا أن نصلى له قائلين «أبانا الذى فى السموات» (متى٦) بل أنه يقول «لا أعود أسميكم عبيداً ... بل سميتكم أحباء» (يو١٥ : ١٥).

وهكذا جعل الله الرابطة التى تربطنا به هى رابطة الحب .

وقيل إنه «أحب خاصته الذين فى العالم ، أحبهم حتى المنتهى» (يو١٣ : ١). وشبه هذا الحب بمحبة الآب لبنيه ، وهكذا قال داود النبى فى المزمور: «كما يتراءف الآب على البنين ، يتراءف الرب على خائفيه» (مز١٠٣ : ١٣) بل وصل الحب إلى أن لقبنا الله بعروس له ، ووصف حبه لنا بطريقة رمزية فى سفر نشيد الأناشيد .

* * *

ووصلت محبة الله للإنسان إلى حد البذل والفداء ...

«هكذا أحب الله العالم حتى بذل إبنه الوحيد ، لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣ : ١٦) وقال السيد المسيح «أنتم احبائى إن فعلتم

ما أوصيتكم به »، « ليس لأحد حب أعظمَ من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه » (يو١٥: ١٤، ١٣) وبسبب هذا الحب والبذل والفداء، كان التجسد واخلاء الذات (في ٢: ٧) وقيل عنه في فدائه لنا « كلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه. والرب وضع عليه إثم جميعنا » (اش ٥٣: ٦).

* * *

ومن محبة الله لنا ... أعطانا طريق التوبة لمغفرة الخطايا.

فلم يمسكنا في خطايانا ليعاقبنا عليها، إنما فتح لنا طريقاً للخلاص بالتوبة. وقيل في الكتاب: «إن الله أعطى الأمم أيضاً التوبة للحياة» (أع ١١: ١٨) بل قال أيضاً: « هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة... إن الله يتوبنا فنتوب » (ار٣١: ١٨) بل « يقودنا في موكب نصرته » (٢كو٢: ١٤).

* * *

ومن عطف الله على الإنسان أنه منحه الوحي الإلهي.

وهكذا « كلم الله الآباء بالأنبياء بأنواع وطرق شتى » (عب ١: ١) ومنح البشرية وصاياه وتكلم مع موسى النبي فماً لأذن كما تكلم أيضاً مع ابراهيم... وأعطانا الله الشريعة المكتوبة «تكلم بها أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » (٢بط ١: ٢١). وهكذا علمنا الرب طرقه، وفهمنا سبله وأنار بصائرنا حتى لا نضل الطريق.

* * *

بل جعل الله روحه فينا ... وجعلنا مسكناً لروحه القدوس.

وفي هذا يقول القديس بولس الرسول «أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم» (١كو٣: ١٦). وبحلول روح الله على الناس وفي الناس صار روح الله يعمل فيهم، وصارت لهم ثمار الروح (غل ١٥: ٢٢، ٢٣) وصارت لهم أيضاً مواهب الروح المتعددة (١كو١٢) والدخول في شركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤) بل صاروا «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط ١: ٤) أي يشتركون معها في عمل

الخلاص ... شركاء فى العمل، وليس فى الجوهر أو الطبيعة طبعاً.

* * *

ومن عطف الله على الإنسان أن منحه البركة والنعمة .

وبركات الله لا تحصى، أما نعمته فهى موضوع طويل، قد احدثكم عنه باستفاضة فيما بعد. وبدأت بركة الله للإنسان منذ أن خلقه، وتتابعت البركة على الآباء والأبرار، بل قيل لأبينا ابراهيم «أباركك... وتكون بركة» (تك ١٢ : ٢) وهكذا سمعنا عن البركة التى منحها الآباء لأبنائهم ...

* * *

ومن عطف الله على الإنسان الحفظ والتدبير وخدمة الملائكة .

جميل ومعز ما قيل عن الملائكة «أليسوا جميعهم أرواحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١ : ١٤) وعمل الملائكة فى انقاذ البشر وفى تبشيرهم لا يدخل تحت حصر... ومن عطف الله علينا أننا «سنصير كملائكة الله فى السماء» (متى ٢٢ : ٣٠) وتسمى بعض البشر ملائكة (رؤ ٢، ٣) مثل يوحنا المعمدان (مر ١ : ٢) وما أجمل ما يقال عن الملاك الحارس.

* * *

ومن عطف الله أنه معنا فى التجارب .

لا يجربنا فوق ما نطيق، ويعطى مع التجربة الاحتمال، ويعطى معها المنفذ، واكاليل وبركات المهم أن نقابل محبة الله وعطفه، بمحبة، ولا يقودنا عطفه إلى اللامبالاة.

الفصل السابع

أحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض

(تك ٢٨ : ١٥)

ألقيت هذه المحاضرة فى الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ١٩٧٧/٦/٣

أريد أن أقرأ لكم عبارة قالها الرب لأبينا يعقوب أبي الآباء، ونأخذها مجالاً لتأملنا... قال له الرب:

« وها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب ».
« وأردك إلى هذه الأرض ».
« لأني لا أتركك، حتى أفعل ما كلمتك به » (تك ٢٨ : ١٥).

* * *

١ـ مَنْ ردهم الرب إلى أرضهم؟

يعقوب أبو الآباء، كان خارجاً من بيت أبيه، خائفاً من أخيه عيسو. وكان سائراً في الطريق، ولا يعرف ماذا ينتظره. كل ما كان يعرفه، أنه وضع أمامه نصيحة أمه رفقة التي قالت له: « هوذا عيسو أخوك مُتَسلٍ من جهتك بأنه يقتلك... قم اهرب إلى أخي لابان إلى حاران، وأقم عنده أياماً قليلة، حتى يرتد سخط أخيك، حتى يرتد غضب أخيك عنك... » (تك ٢٧ : ٤٣ ـ ٤٥).

وفيما هو هارب من أخيه المزمع أن يقتله، طمأنه الرب بقوله: « ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض ».

إنه حنو من الحفظ الإلهي.

إلهنا الحنون الطيب، يرافق إنساناً في هربه، ليحفظه حيثما يذهب، ويكون معه، ويرده إلى أرضه.

ويظهر حنو الله وحفظه في هذه القصة، مما يأتي:

كان عمل الله رجاء مقدماً لإنسان ضعيف عاجز:

● فأبونا يعقوب ما كان قادراً أن يحمى نفسه .

● وكان أضعف من عيسو بكثير ، وعدوه كان قادراً على قتله .

● وما كان يعقوب قادراً أن يحفظ نفسه فى الطريق ، ولا أن يرجع بقوته إلى تلك الأرض... وهنا تدخل الله ، إله الضعفاء ، ليحفظ ويحمى و يرد ...

هناك عمل إلهى فى حياة كل إنسان ـ

عمل إلهى مصحوب بمواعيد ، تعطى رجاء للنفس المتعبة ...

وسنحاول أن نتتبع أمثلة لهذا العمل الإلهى ، وهذا الحفظ الإلهى ، كما يبدو فى قصص الكتاب المقدس .

* * *

• حينما أُخذ شعب الله مسبياً إلى بابل وإلى آشور ، وكانوا هناك مستعبدين ، أسرى حرب ، عاجزين عن حماية أنفسهم ... وقد ملكتهم الكآبة ، وعلقوا قيثاراتهم على أشجار الصفصاف ، ورددوا قول المزمور: « على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا حينما تذكرنا صهيون » (مز ١٣٦ : ١) .

هنا تدخل الله ، وهمس فى أذن الشعب بكلمة رجاء ، قال له فيها : « ها أنا معك . واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » ... وقد كان :

عادوا من السبى ، وبنوا أسوار أورشليم المهدمة ، وأصلحوا أبوابها المحروقة بالنار، وردهم الرب إلى تلك الأرض ..

وقد شرح نحميا فى فرح عظيم قصة هذا الرجوع ، وعمل الله معه فيه . وكما نفذ الله وعده لفرد واحد هو يعقوب ، نفذ أيضاً نفس الوعد لشعب بأكمله ...

* * *

• هناك شخص آخر ، كانت حالته أسوأ .. هو أبونا آدم :

أخطأ أبونا آدم وكسر الوصية . وطرده الرب من الجنة . وقال له بالتعب تأكل من الأرض كل أيامك . ووضع الرب الكاروبيم بلهيب سيف متقلب لحماية شجرة الحياة ، حتى لا يأكل منها آدم ولا حواء . وأغلقت أبواب الفردوس أمامهما (تك ٣) ... وماذا بعد ... ؟

وسط كل هذا التعب ، ومع هذه العقوبة وهذا الطرد ، كان نفس الوعد الإلهي مقدماً لأبينا آدم « ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » ...

ومتى رده الرب إلى الفردوس ؟ ... كان ذلك بعد أكثر من خمسة آلاف سنة ؟ ... ليكن ..

إن وعد الله قائم ، مهما طالت الأيام عليه ..

لقد مرت آلاف السنوات ، انقضت واختفت . ولكن لم تمر أبداً ولم تختفِ عن نظر أحد من الآباء ، تلك العبارة المعزية « ها أنا معك ... وأردك إلى هذه الأرض » .

ورقدوا جميعهم على رجاء ...

يرتل كل منهم عبارة المزمور « وأنا أؤمن أنى أعاين خيرات الرب فى أرض الأحياء . انتظر الرب .. » (مز ٢٧ : ١٣) .

إن عقوبة الله لم تستمر ... الله لا يغضب إلى الأبد ، ولا يحقد إلى الدهر (مز ١٠٣ : ٩) . لقد طرد آدم لأنه أخطأ . ولكنه مع الطرد ، أعطاه الوعد بالخلاص ...

وعندما سُمر ربنا يسوع المسيح على الصليب ، وحمل جميع خطايانا ، ودفع الثمن كاملاً للعدل الإلهي ، ماذا حدث ؟

فتح الرب أبواب الفردوس ، ورد آدم إلى تلك الأرض

ورد معه جميع بنيه ، الذين رقدوا على رجاء ، وكذلك اللص اليمين الذى مات على رجاء الوعد الإلهي « اليوم تكون معى فى الفردوس » . ونحن نسبح الرب ونقول له :

صادقة يارب هى مواعيدك . وحقيقى كل رجاء تقدمه .

حينما تقول لأحد « أردك إلى هذه الأرض ، لا بد أن ترده فعلاً .

يعقوب أبو الآباء ، مرت عشرون سنة ، ورددته إلى أرضه . والشعب المسبى ، مرت سبعون سنة ورددته . وأبونا آدم مرت أكثر من ٥٠٠٠ سنة ورددته إلى الفردوس .

مواعيد الله لا بد أن تنفذ . لا يهم بعد عشرين سنة ، أو سبعين ، أو خمسة آلاف ...

المهم أن يحقق الله وعده ، فى الموعد الذى يحدده وفى محبة وقوة ، يرد تلك النفس التى وعدها وهنا تظهر قوة العمل الإلهى فى حياة الفرد ، أو الجماعة .

ونلاحظ ملاحظتين فى هذه الأمثلة الثلاثة التى ذكرناها .

هذه الأمثلة الثلاثة تدور حول نفوس كانت عاجزة ، وأيضاً خاطئة ...

لا شك أن ابانا يعقوب كان عاجزاً عن رد نفسه إلى أرضه . وكذلك الشعب فى السبى . وأيضاً آدم كان فى عجز مطلق عن رد نفسه إلى الفردوس ...

وهذه الأمثلة الثلاثة ، تدور حول نفوس قد أخطأت إلى الرب ، وبالتالى ما كانت مستحقة لوعوده ...

آدم معروفة خطيته أو خطاياه العديدة (١) .

ويعقوب خدع أباه الضرير ، وأخذ البركة بالغش والاحتيال ، كما سبق أن أخذ البكورية من أخيه باستغلال اعياء أخيه فى جوعه .

وشعب إسرائيل كان قد وقع فى عبادة الأصنام ، مع خطايا أخرى كثيرة جداً أغضب بها الرب ، حتى دفعه إلى أيدى أعدائه .

★ ★ ★

ولكن الله لا يعطى مواعيده وحفظه للأبرار فقط ..

حتى الخطاة أيضاً ، لا يسقطهم الرب من رعايته وحفظه ..
ولو كان الخطاة محرومين من عناية الله ، ما خلص أحد ..
ولكن الرب جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك ... وقد أعلن أن المرضى هم الذين يحتاجون إلى طبيب ، وليس الأصحاء . وأنه جاء ليدعو الخطاة ـ وليس الأبرار ـ إلى التوبة .

ه ما أكثر وعود الرب للخطاة ، بردهم إلى تلك الأرض ..

---

(١) انظر كتابنا آدم وحواء .

حتى فى سقوط الإنسانُ وفى خطيئته ، يقول له الرب : أنا معك ، وأردك إلى هذه الأرض ، أرض الأحياء .

الخروف الضال الذى خرج من الحظيرة وتاه ، ولم يعرف كيف يعيد نفسه إلى حظيرته ، قال له الرب أيضاً : لا تخف ، أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، واردك إلى هذه الأرض » . وفعلاً حمله على منكبيه فرحاً ، وأعاده إلى حيث كان .

والدرهم المفقود أيضاً ، ما كان بقدرته أن يرجع إلى جيب صاحبه أو صندوقه . ولكن الرب كان معه ، وحفظه ، ورده إلى تلك الأرض .

* * *

• ولنا مثل آخر ، فى قصة يونان النبى :

يونان بخطيئته ألقى فى البحر ، وبخطيئته ابتلعه الحوت .. وظل فى بطن الحوت . من الذى يقدر أن يخرجه ؟!

ولكنه فى بطن الحوت ، صلى إلى الرب ، لكى يعود فيرى هيكل قدسه . ونظر الله إليه ، وهو فى جوف الحوت ، وقال له : لا تخف . ها أنا معك ، وأردك إلى تلك الأرض ... وقد كان ..

* * *

عجيب هو الله . كل شىء مستطاع عنده ...

حتى ما يبدو مستحيلاً أو غير مستطاع ، عند الناس ..

• هل كان يجول فى ذهن الثلاثة فتية ، وهم يلقون فى أتون النار ، أنهم سيعودون مرة أخرى إلى بيوتهم ؟!

ولكن فى وسط النار ، كان الرب يهمس فى أذن كل واحد منهم « أنا معك ... وأردك إلى هذه الأرض » .

• ودانيال أيضاً ، وهو فى جب الأسود ، ملقى فى وسط الأسود الجائعة ، يقول له الرب نفس العبارة ...

وفعلاً ، أخرج الله دانيال سالماً من الجب

وأخرج الثلاثة فتية من أتون النار
كما سبق وأخرج يونان من جوف الحوت وردهم جميعاً ...
حقاً عجيب هو الرب ! عجيب فى محبته ، وفى حفظه ، وعجيب فى عمله الإلهى !
عجيب فى كل مرة قال فيها لأحد أحبائه : أنا معك ، وأردك إلى هذه الأرض .

* * *

٢ـ من ردهم إلى أرض الأحياء بالتوبة

• على أن هذه العبارة ، يمكن أن تؤخذ بطريقة روحية أخرى . ولنبدأ ببطرس الرسول كمثال .

إنه بعد أن أنكر السيد المسيح ، بكى بكاء مراً ، إذ شعر أنه قد انفصل عن الرب وعن محبته . وانفصل عن باقى الرسل ، وعن الخدمة وكل العمل الرعوى ...

ولا شك أنه قد رنت فى اذنيه عبارة الرب « من أنكرنى قدام الناس ، ينكر قدام ملائكة الله » (لو ١٢ : ٩) .

ولكن الرب عزاه بنفس العبارة ، التى سبق فعزى بها أبانا يعقوب « أنا معك . وأردك ... » . ولكن كيف رده الرب ، ومتى ؟ حينما ظهر له ، وقال له فى حنو « إرع غنمى . وارع خرافى » (يو ٢١ : ١٥) ... وحينئذ شعر بطرس أن الرب قد رده إلى جماعة الرسل ..

* * *

• وداود النبى ، حينما زنى وقتل ، وسقط من ذلك العلو العظيم الذى كان فيه . ولعله كانت فى فكره عبارة اوريجانوس [أيها البرج العالى ، كيف سقطت ؟!] .

وبكى داود بكاء شديد مستمراً ، وفى كل ليلة كان يبلل فراشه بدموعه ، ولكن إلهنا الحنون الطيب ، لم يتركه وحيداً فى أحزانه ، بل قال له : « أنا معك ، وأردك إلى تلك الأرض » ..

أردك إلى أرض التوبة والنقاوة ، والمصالحة مع الله .

واستطاع الرب أن يرد داود ، وأن يغسله فيبيض أكثر من الثلج ، وأن يرد له بهجة خلاصه (مز ٥١ : ١٢).

★ ★ ★

وبنفس الوضع رد الرب شمشون بعد سقوطه ..

ولعله بنفس الوضع أيضاً رد سليمان بن داود ، الذى قال له عنه : « إن تعوج اؤدبه ... ولكن رحمتى لا تنزع منه ، كما نزعتها من شاول » (٢ صم ٧ : ١٤ ، ١٥).

لقد مر وقت على دواد ، ظن أنه لا خلاص ..

وهكذا صرخ إلى الرب قائلاً : « يارب لماذا كثر الذين يحزنوننى ؟ كثيرون قاموا علىَّ . كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه » (مز ٣).

ووسط هذه الأفكار التى يزرعها الشياطين ، تبدو وعود الرب مملوءة رجاء « أنا معك ، وأردك إلى هذه الأرض » ...

★ ★ ★

هذه العبارة هى أقوى سلاح فى التوبة والرجوع ..

فمشكلة كثيرين أنهم يظنون بأنهم سيعودون إلى الله ، بقوة إرادتهم ، وبعزيمتهم ، وبصدق عزمهم على الرجوع ، دون أن يضعوا العامل الإلهى فى قصة عودتهم إلى الله !!

كلا ، صدقونى ... فلو كان الإنسان الخاطىء هو الذى يعيد نفسه إلى الله ، ما عاد أحد ...

إنما الإنسان يصرخ إلى الله : توبنى يارب فأتوب ، خلصنى فأخلص (أر ١٧ : ١٤). والسيد المسيح يقول فى وضوح « بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥).

إن النفس الميالة إلى الخطية ، وكذلك الإرادة الضعيفة ، وحروب الشياطين ، والمعطلات الروحية ... كل هذه تصد الإنسان ، وتحاول منعه عن الرجوع إلى الله . ولكن نعمة الله تقف أمام هذه المعطلات . وصوت الرب يقول فى حنو للخاطىء : « لا تخف . أنا معك . أحفظك ... وأردك إلى تلك الأرض ».

أنا أردك إلى تلك الأرض ، مهما بعدت أنت وضللت ...

ومهما كان يبدو لك أو لغيرك ، أن الخلاص بعيد عنك أو مستحيل ، أو أن التوبة غير ممكنة ...

أنا معك ، عندما يحاربك الشيطان باليأس ...

حينما يحاربك عدو الخير ، و يقول لك : إن الخطية لم تعد مجرد عادة عندك ، بل صارت طبيعة فيك . ولن تقدر على تركها . لقد صارت ملتصقة بك . أكثر من التصاق جلدك بلحمك . وصارت تسرى فيك ، أكثر من سريان دمك فى عروقك ... !!

لا تخف منه ومن أفكاره ، بل قل له فى ثقة :

أنا لن أرجع إلى الله وحدى ، أو بقوتى ...

هو الله الذى سيردنى إليه ، الله الذى قال :

« أنا معك . وأحفظك . وأردك إلى تلك الأرض » .

مادام الله هو الذى يردنى ، إذن فغير المستطاع عند الناس ، هو مستطاع عند الله (مر ١٠ : ٢٧) .

إن الله يقول لنا فى وعوده :

« أعطيكم قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم . وانزع قلب الحجر من لحمكم ، وأعطيكم قلب لحم . وأجعل روحى فى داخلكم . وأجعلكم تسلكون فى طرقى وتحفظون احكامى » (حز ٣٦ : ٢٦ ، ٢٧) .

و يقول أيضاً « هلم نتحاجج - يقول الرب - إن كانت خطاياكم كالقرمز ، تبيض كالثلج » (إش ١ : ١٨) .

إنه الرب الذى يعمل العمل كله ، و يردنا إليه ...

* * *

• بأنواع وطرق شتى ، يردنا الرب إلى أرضه :

بالحب والحنان ، يردنا الرب إلى تلك الأرض ...

وإلا ... فبالشدة والعقوبة يردنا ، أو بالتجارب والضيقات .

أو بالتعليم والإرشاد ... أو بصبره علينا وطول أناته .

بأية الطرق ... بالوسيلة المناسبة لكل نفس على حدة ...

المهم ، أنه يخلص على كل حال قوماً . لأنه يريد أن اجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون (١تى ٢ : ٤) . وهو لا يسر بموت الخاطىء ، بل بالحرى أن يرجع ويحيا (حز ٣٣ : ١١) .

إنه الرب الراعى الشفوق ، الذى يحافظ على غنمه ..

هو الذى يحنن عليك قلوب الناس ..

وهو الذى من أجلك يربط الشيطان ، فلا يستطيع أن يؤذيك .

هو الذى يحوط حولك من كل ناحية ، فتغنى وتقول :

سبحى الرب يا أورشليم ، سبحى إلهك يا صهيون لأنه قوى مغاليق أبوابكِ ، و بارك بنيكِ فيكِ الذى جعل تخومكِ فى سلام ، ويملأك من شحم الحنطة .

الله هو الذى يقوى مغاليق أبوابك ، ويجعل تخومك فى سلام .

ضع أمامك باستمرار ، عمل الله فى حياتك ، وليس عملك أنت .

ما هو عمل الله فى حياتك ؟ ماذا عن يد الله معك ، يمين الله التى صنعت قوة ، التى تمسك بك وتسندك ...

ماذا يفعل الروح القدس من أجلك ؟ وماذا تعمل قوة الله ونعمة ربنا يسوع المسيح من أجلك ؟ ...

ماذا تفعل تشفعات الملائكة وصلوات القديسين من أجلك ؟

أما عملك أنت ، فله المكان الثانى ، أو المكان الأخير ..

أما المكان الأول ، والمكانة الأولى ، فلعمل الله ، ولوعد الله القائل : أنا معك . أحفظك ، وأردك إلى تلك الأرض .

★ ★ ★

*** ياليت هذا الوعد الإلهى ، يكون ثابتاً فى ذاكرتنا :**

نضعه أمامنا باستمرار ، فنتعزى ونتقوى ...

كلما تيأس وتظن أنه لا خلاص ، أو أنه لا فائدة من كل جهادك ، تذكر هذه العبارة الإلهية .

كلما يضغط عليك الشيطان ، ويقول أنت فى قبضتى !

أو يقول لك : لن أتركك ، لقد وقعت فى يدى !

قل له : ما هى قبضتك ؟ وما هى قوتك ؟! أين شوكتك يا موت ، أين غلبتك يا هاوية ؟! (١ كو ١٥ : ٥٥) .

هناك الوعد الإلهى « أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب » .

حسن يارب قولك . ولكن ماذا عن عيسو أخى ؟

عيسو الشديد القاسى الذى يتهددنى ، الذى قال فى غضبه « أقوم واقتل يعقوب أخى » ؟ يرد الرب و يقول :

« لا تخف . أنا معك . أحفظك حيثما تذهب » .

مبارك أنت يارب ، ومبارك هو حنوك . ليكن لى كقولك .

★ ★ ★

ولتكن قو ياً من الداخل ، مهما أطبقت حولك الضيقات ..

مهما تآمر عليك الأشرار ، وماجت حولك المياه الكثيرة ...

مهما تفكرت الشعوب بالباطل ، وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه ، قائلين : لنقطع اغلالهما ، ولنطرح عنا نيرهما .

لا تلتفت إلى كل هذا ، بل ضع أمامك الوعد الإلهى : أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ...

حقاً ، مادمت أنت يارب معى ، فالدنيا بأسرها كلا شىء قدامى ..

هذه الدنيا كلها ، كقبض الريح ، كالهباء ، بكل ما فيها من مؤامرات الناس الأشرار ، وكل الهياج ، وصوت المياه الكثيرة ...

بما فيها من مكر لابان خالى ، الذى غير اجرتى عشر مرات (تك ٣١ : ٧) ، وأعطانى ليئة بدلاً من راحيل (تك ٢٩) ..

مادام وعدك يارب قائماً أمامى ، فلن أخاف البحر الأحمر إن اعترض سبيلى . أنت قادر أن تشقه ، وتمهد لى طريقاً فى داخله ، وتقول لى : امش فيه ، وأنا معك ، أحفظك حيثما تذهب...

حتى إن وقف أمامى جليات الجبار ، وعيرنى طول النهار ، وهددنى برمحه الذى مثل نول النساجين ، وبسيفه وقوته وشماتته .. أقول له : أنت تأتينى بسيف ورمح . ولكن الحرب للرب . فأنا لذلك آتيك ومعى الوعد الإلهى القائل : أنا معك ، احفظك حيثما تذهب...

* * *

لهذا كله ، كان أولاد الله دائماً فرحين ومطمئنين .

عاشوا بقلب مطمئن فى جهادهم الروحى ، وفى كل الحروب الروحية . ولم يتعبوا من حروب الشياطين ، ومن صراعهم مع أجناد الشر، وقوات هذا العالم المظلم . بل تركوا العالم يضطرب حولهم كما يشاء ، وتمسكوا بالوعد الإلهى المملوء رجاء وعزاء .

وأنت كذلك فى كل حروبك الروحية ، وفى كل ضيقاتك ومشاكلك ، لا تنظر إلى القوى الخارجية التى تحاربك ، ولا تفكر مَنْ سيقابلك فى الطريق و يعترضك . بل ركز فكرك ومشاعرك فى وعود الله ، التى تشجعك وتسندك وتعزيك .

كم أنت حنون يا إلهى وطيب ...

وكم هى معزية ، وعودك التى ترافق أولادك طوال مسيرتهم فى غربة هذه الحياة ... كم أنت تعمل ، وقوتك الحافظة تعمل ...

مفرحة هى أقوالك ، التى تشجع بها أولادك ...

لقد كثر الأعداء حول داود النبى ، حتى قال ذات مرة : « أكثر من شعر رأسى ، الذين يبغضوننى بلا سبب » (مز ٦٩ : ٤) . ومع ذلك نراه فى كل ضيقاته ، ومع كثرة أعدائه ، ينسى كل هذا ، و يقول للرب : « ناموسك هو درسى » « شهاداتك هى تلاوتى » (مز ١١٩) .

أية شهادات يا داود ، تعزيك فى كل ضيقاتك ؟

يجيب : إنها كثيرة جداً ، ولكن تكفيني منها واحدة ، وهي قول الرب : « أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » .

لست أريد سوى هذه العبارة . ومادمت معي أيها الرب الإله ، ومادامت وعودك في فكري ، فلن أخاف شراً ، حتى إن سرت في وادي ظل الموت ، لأنك أنت معي (مز ٢٣) .

ستجدني كلي شجاعة ، وإيمان ، ورجاء ، بوعدك الإلهي ...

حقاً يارب انك عجيب . وحسن قولك لمنوح والد شمشون .

« لماذا تسأل عن اسمي ، وهو عجيب » (قض ١٣ : ١٨) .

إنه منظر عجيب حقاً ، أن نرى أولاد الله سائرين في طريق الحياة ، ونرى الله ممسكاً بيد كلٍ منهم ، يقول له وهو يشجعه : ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ...

* * *

إن قوة المسيحية ، في أنها لا تعتمد على بشرية أو إنسانية أو ذاتية ، إنما تعتمد على الوعد الإلهي : أنا معك ، وأحفظك ..

احفظك من الشياطين ، ومن الناس الأشرار

واحفظك من نفسك ...

احفظك من كل سوء . احفظ نفسك . احفظ دخولك وخروجك (مز ١٢١) . ويسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك (مز ٩١) « لا تخشى من خوف الليل ، ولا من سهم يطير في النهار ، ولا من أمر يسلك في الظلمة » (مز ٩١) .

وإن سرت في وادي ظل الموت ، لا تخاف شراً .

لماذا ؟

لأني أنا معك - بعد الموت - أحفظك حيثما تذهب - وأردك إلى هذه الأرض ...

هنا ونتأمل :

* * *

٢- أردكم إلى الأرض الجديدة

إننا من عند الله خرجنا . نفخة قدسية خرجنا من فمه الإلهى ، ودخلنا فى هذا التراب ، وعشنا فيه زمناً .

وجودنا فى التراب ، هو فترة غربة ، يصرخ فيها المرتل قائلاً فى المزمور: « و يل لى ، فإن غربتى قد طالت علىَّ » (مز ١٢٠) .

وفيما نحن نعيش فى هذا التراب ، ونتعب من هذا الجسد الترابى ، نصرخ مع القديس بولس الرسول : « مَنْ ينقذنى من جسد هذا الموت » (رو ٧ : ٢٤) ، حينئذ يقول الله لكل منا « ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » .

وما هى هذه الأرض ؟

يقول القديس يوحنا الرائى : « أبصرت وإذا سماء جديدة وأرضاً جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد مضتا ، والبحر لا يوجد فيما بعد » (رؤ ٢١ : ١) .

و ينظر الإنسان مبهوراً إلى هذه الأرض الجديدة ، التى بارئها وصانعها الرب (عب ١١ : ١٠) ... الأرض المقدسة ، التى لا توجد فيها خطية ولا موت . ولا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها ، لأن مجد الرب ينيرها (رؤ ٢١ : ٢٣) .

و يشير الله إلى هذه الأرض و يقول :

« ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، واردك إلى هذه الأرض » ليكن إسم الرب مباركاً ، من الآن وإلى الأبد ، آمـــين .

* * *

الفصل الثامن

دون أن نطلب

"لأن أباكم السماوي
يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها"
(متى ٦:٢٢)

القيت هذه المحاضرة فى الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ١٩٨٠/١١/١٤

١- دون أن نطلب

لعل أحدكم يقول : كيف يكون لى رجاء ، وأنا لا أصلى ، ولا أطلب من الله نعمة ولا قوة ولا ملكوت الله وبره ؟ هل مثلى يكون له خلاص ؟!

نعم ، إن الخلاص للكل . وإن كنت أنت لا تطلب خلاصك ، فإن السيد الرب قد قيل عنه إنه : «جاء لكى يطلب ويخلص ما قد هلك» (لو ١٩ : ١٠) . إنه يسعى لخلاصك أكثر مما تسعى أنت إليه . وهو فى كل مجال يعطينا دون أن نطلب .

إنه شىء مفرح أن يعطينا الله ما نطلب . ولكن عمق الفرح يظهر فى أنه يعطينا دون أن نطلب ...

هنا عمق المحبة الإلهية نحو البشر . بل هنا أبوة الله الحانية ، التى تدرك تماماً ما نحتاجه وما يلزمنا ، فيعطينا من فيض محبته ، وليس لمجرد استجابته لصلواتنا . وسأحاول يا أخوتى أن أثبت لكم هذه الحقيقة بأمثلة عديدة ، حتى يكون لكم عمق الرجاء فى عمل الله لأجلكم .

* * *

طبيعة الله الذى يعطى دون أن نطلب ، ظهرت واضحة منذ البدء ، من أول قصة الخليقة ، بل فى عملية الخلق ذاتها .

إنه منحنا الوجود دون أن نطلب . ومنح الوجود لكل الكائنات التى خلقها العاقلة والجامدة ، التى لها حياة والتى ليس لها ، طبعاً دون أن تطلب . لقد خلقها كلها من العدم . والعدم ليس له كيان لكى يطلب .

* * *

وخلقنا الله على صورته ومثاله دون أن نطلب ...

حتى على فرض المستحيل ، لو كانت لنا الإمكانية أن نطلب الصورة التى نُخلق عليها ، ما كنا نطلب أن نُخلق على صورة الله ومثاله ، كما شاء الله وتحنن (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

* * *

ودون أن نطلب خلق الله لنا هذه الطبيعة وسلطنا عليها .

أعدّ لنا كل شيء قبل أن نكون . بسط لنا السماء سقفاً ، ومهد لنا الأرض كى نمشى عليها . وكما قال القديس غريغوريوس فى قداسه : « لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك ... من أجلى ألجمت البحر . من أجلى أخضعت طبيعة الحيوان » ... ومن أجلنا خلق الله الأشجار والأثمار ، والعشب والبقول ، والأزهار والأطيار . ومن أجلنا خلق النور ، ووضع قوانين الفلك ... كل ذلك دون أن نطلب ...

ولم يكتف بهذا وإنما قال لنا فى حنوه « اثمروا واكثروا واملأوا الأرض ، واخضعوها . وتسلطوا على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى كل حيوان يدب على الأرض » (تك ١ : ٢٨) .

* * *

وخلق الله حواء لآدم دون أن يطلب ...

كان يعلم أن آدم لا يجد له معيناً نظيره ، مثلما تجد باقى الكائنات (تك ٢ : ٢٠) . فخلق له حواء . وهكذا أمكن أن تنمو البشرية وتملأ الأرض وتعمرها ، وكل ذلك دون أن نطلب .

* * *

إن هذه هى طريقة الله كأب محب وكراعٍ صالح ...

إنه لا ينتظر من أولاده ومن رعيته ومن خليقته أن يطلبوا فيعطيهم . بل هو من تلقاء ذاته يعرف ما يحتاجون إليه ، فيعطيهم دون أن يطلبوا ...

* * *

حقاً ماذا يدركه الطفل الصغير من احتياجاته حتى يطلبها ؟!

ولكن أباه يعلم ويفهم ماذا يحتاج إليه ابنه ، فيعطيه دون أن يطلب . هكذا نحن مع أبينا السماوى . إنه أدرى بما نحتاج إليه . وهو كأب حنون يدبر احتياج كل إنسان ، ويدبر احتياجات الأمم والشعوب والجماعات . ولا ينتظر من كل هؤلاء حتى يطلبوا ... وربما لا يطلبون ما يفيدهم وما يفيد غيرهم معهم !!

* * *

إن كان الكاهن العادى يفتقد رعيته ، ويوف احتياجاتها دون أن تطلب ، فكم بالأولى الله رئيس الكهنة الأعظم وراعى الرعاة ؟!

* * *

نعم كم بالأولى الله : « راعى نفوسنا وأسقفها » (١ بط ٢ : ٢٥) الذى قال ف حنوه «أنا أرعى غنمي وأربضها -يقول السيد الرب- وأطلب الضال ، واسترد المطرود ، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح » (حز ٣٤ : ١٥ ، ١٦) .

إنه يرعى شعبه ، لأن هذا هو عمله ، وهذا هو حبه .

ولا ينظر أن ينبهه أحد إلى هذا . إنما نحن نطلب ، لأن هذا الطلب يشعرنا ببنوتنا لله ، ويعمق الدالة بيننا وبينه ، ويعطينا فرحاً داخلياً حينما تستجاب طلبتنا . ولهذا قال الرب لتلاميذه :

« إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي . اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً » (يو١٦ : ٢٤) .

* * *

فرح الاستجابة أو فرح الدالة ، هو الذى يجعلنا نطلب .

ولكن الله يمنحنا كل شيء ، حتى دون أن نطلب .

وف الكتاب المقدس توجد أمثلة عديدة ، تثبت لنا هذه الحقيقة ، فلنحاول أن نتأمل بعضها حتى يكون لنا من ذلك عزاء ، وحتى يكون لنا رجاء باستمرار ف الله الذى يعمل من أجل سعادتنا كأب وراعٍ وخالق ...

* * *

لوط : أنقذه الله مرتين دون أن يطلب ...

مرة حينما سبى مع أهل سادوم ف حرب أربعة ملوك مع خمسة ملوك التى وردت

فى (تك ١٤). ودون أن يطلب لوط، حرك الله قلب إبرآم عمه فجمع رجاله المدربين، وأنقذه من السبى، كما أنقذ أهله والمدينة كلها.

والمرة الثانية حينما قرر الله حرق سادوم. ودون أن يطلب لوط أرسل الله له ملاكين، فأخذاه هو واسرته بقوة، وكانا يدفعانه إلى الخارج دفعاً وهو متوانٍ (تك ١٩ : ١٦). وذلك لشفقة الرب عليه ورغبته الإلهية فى انقاذه.

* * *

إن الله لا ينتظر حتى يصرخ الإنسان إليه، وإنما ...

« من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين، الآن أقوم - يقول الرب - أصنع الخلاص علانية » (مز ١١).

لم يقل « من أجل صلواتهم وطلباتهم »، وإنما من أجل حالتهم التى رآها، من أجل شقائهم وتنهدهم، يقوم الرب ويصنع الخلاص، سواء طلبوا أو لم يطلبوا ...

وهكذا فى كل مرة يرى فيها الله مذلة شعبه (خر ٣ : ٧)، يرسل لهم مخلصاً يخلصهم، كما فعل أيام موسى، وأيام جدعون (قض ٦).

وأنقذ إسحق من الذبح، فى اللحظة الأخيرة، والسكين فوق رقبته، دون أن يطلب (تك ٢٢) ...

* * *

والله يشبع كل حى من رضاه، دون أن يطلب ...

يرسل المطر والشمس، ويعطى الطعام لكل ذى جسد، حتى للملحدين الذين لا يطلبون منه شيئاً. ويعطى جمالاً لزنابق الحقل. إنه يمنح الكل من أجل جوده هو وخيريته، وليس بسبب استحقاق الناس ولا بسبب طلبهم..

ونذكر فى هذا المجال بعض النعم العظيمة التى منحها الله :

٢- نِعَمْ الله العظيمة

خذوا مثالاً لذلك حبل السيدة العذراء بالله الكلمة.

هل تظنون أن العذراء كانت تطلب هذا الأمر ؟! محال طبعاً ! وما كان حتى يخطر بذهنها ، بل قد تعجبت له وقالت للملاك : « كيف يكون لي هذا ؟! ... » (لو ١ : ٣٤) . ولكن الرب منحها هذه النعمة العظيمة ، والقدير صنع بها عظائم (لو ١ : ٤٩) دون أن تطلب ...

* * *

وعملية الفداء والخلاص على الصليب ، هل طلبها الإنسان ؟!

إن أول وعد بالخلاص إنما منحه الله للإنسان دون أن يطلب ، حينما قال إن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥) . والخلاص بهذا الشكل ، ما كان يفكر أو يحلم به أحد .

هل كان أحد يفكر أن الله يتجسد من أجلنا ، ويخلي ذاته ، ويتألم ويموت على الصليب ؟! إن بطرس الرسول لما سمع هذا الكلام من المسيح « ابتدأ ينتهره قائلاً حاشاك يارب » (متى ١٦ : ٢٢) . إذن هذا الأمر ما كان يطلبه أحد . ولكن الله منحنا هذا الخلاص دون أن نطلب ...

* * *

وتظهر نعمة الله العظيمة في رفع إيليا وأخنوخ إلى السماء .

هل كان أخنوخ يحلم أو يفكر في أن يكون أول إنسان يرفعه الله إلى السماء ويأخذه إليه ؟! (تك ٥ : ٢٤) . أو هل طلب إيليا أن يرفعه الله في مركبة نارية إلى السماء ؟! (٢مل ٢ : ١١) . إنها نعم لا تخطر على بال ، ولذلك من المحال أن يطلبها إنسان . بل يعطيها الله لمن يشاء من أولاده دون أن يطلب ...

* * *

ونفس الكلام نقوله أيضاً عن النعيم الأبدي .

هذا الذي يقول عنه الكتاب : « ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على بال إنسان ، ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) . وطبعاً من المستحيل أن يطلب أحد ما لم يخطر على بال إنسان .

إننا قد نطلب نعيماً . ولكن هذه الصورة بالذات ، هي شيء فوق ما نطلب ، كل ما فيه من تفاصيل لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ، ننالها دون أن نطلب ...

أكان بولس الرسول يطلب أن يصعد إلى السماء الثالثة ... !

هذه التى رأى نفسه فيها ، أفى الجسد ليس يعلم ، أم خارج الجسد ليس يعلم... أو كان يطلب أن يسمع هناك كلمات لا يُنطق بها ، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها ...؟! من يطلب هذا ؟! لا أحد طبعاً .

ولكن الله فى كل اعلاناته للبشر ، يعطى دون أن نطلب ...

٢- الرؤى والظهورات

كلها ، قد منحها الله للناس دون أن يطلبوا ...

أكان أبونا يعقوب يطلب أن يرى سلماً واصلة بين السماء والأرض ؟!

أو كان يطلب أن يرى ملائكة الله صاعدة ونازلة على هذا السلّم ، وصوت الله يناديه ، ويمنحه الطمأنينة والهدوء (تك ٢٨ : ١٢- ١٥)... كل ذلك بعد أن خدع أباه وأخذ منه البركة بمكر...

أليس أن هذه الرؤيا جاءت ليعقوب دون أن يطلب ؟!

* * *

وبنفس الوضع الرؤيا التى رآها القديس يوحنا فى بطمس

إنه لم يطلب مطلقاً فى منفاه أن يرى المسيح ، « ووجهه كالشمس وهى تضىء فى قوتها ، وعيناه كلهيب نار» بل أن يوحنا لم يحتمل هذا المنظر وسقط على الأرض كميت (رؤ ١ : ١٢- ١٧) . وهو لم يطلب أن يرى السماء مفتوحة ، ويرى عرش الله ، والأربعة والعشرين كاهناً ، والأربعة حيوانات غير المتجسدين ، والملائكة السبعة أصحاب الأبواق ، وأصحاب الجامات ، وكل ما هو عتيد أن يكون...

وكيف يطلب شيئاً من هذا ، وهو لا يعلمه .

ونفس الكلام ينطبق على رؤى دانيال ، ورؤى حزقيال ، وباقى الرؤى ، وكل الأحلام المقدسة ، وكل النبوءات أيضاً.

كل ذلك كشف إلهى ، أو اعلان إلهى ، لا يعقل أن يطلبه أحد ، لأنه طبعاً لا يعرفه ولا يدور بذهنه ...

* * *

أحلام يوسف الصديق عن مستقبل حياته ، ما كانت تدور بذهنه .

ما كان يجول بذهنه ـ وهو صغير اخوته ـ أن يأتى إليه اخوته و يسجدوا له ، وكذلك أبواه . لذلك فالحلم الخاص بسجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً له ، ما كان يطلبه . ولا الحلم الخاص بسجود حزم اخوته لحزمته (تك ٣٧) . إنها رئاسة يمنحه الله أياها ، و يعلنه بها ، دون أن يطلب .

ونفس الكلام نقوله عن موهبة يوسف فى تفسير الأحلام .

ونقول هذا عن كل موهبة أخرى يمنحها الله لإنسان . مثل موهبة الموسيقى والمزامير التى وهبها الله لداود دون أن يطلب ، ومثل موهبة القوة التى وهبها لشمشون دون أن يطلب . ومثل موهبة الجمال التى وهبها ليوسف (تك ٣٩ : ٦) ولموسى (أع ٧ : ٢٠) ولداود (١ صم ١٦ : ١٥) .

* * *

والأحلام المقدسة هى موهبة أخرى من الله لأسباب روحية .

بعضها للمعرفة ، والبعض للإنقاذ ، أو للتعزية ، أو للبشارة ...

حلم ليوسف النجار لينقذه والعائلة من سيف هيرودس (متى ٢ : ١٣) . وحلم آخر للمجوس (متى ٢ : ١٢) . وأحلام لفرعون مصر لكى يستعد للمجاعة المقبلة (تك ٤١ : ١٧ - ٣٦) . وحلم لابيمالك لانقاذ سارة زوجة إبراهيم (تك ٢٠ : ٣) وحلم لسليمان ليمنحه الرب بركة (١ مل ٣ : ٥) . وحلم لنبوخذنصر فسره له دانيال لكى يتضع و يتوب (دا ٤ : ٤ - ٢٧) . وأحلام البشارة كثيرة مثل الحلم الذى ظهر ليوسف النجار يبشره بميلاد المسيح .

كل هذه الأحلام منحها الله لأصحابها دون أن يطلبوا ...

وقد قدم الله الرؤى والأحلام كموهبة من روحه القدوس ، مثلها مثل النبوءة

وحينما قال فى سفر يوئيل النبى : « اسكب روحى على كل بشر ، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ، ويحلم شيوخكم أحلاماً ، ويرى شبابكم رؤى » (يوء ٢ : ٢٨) وتكررت هذه العبارة فى سفر أعمال الرسل (أع ٢ : ١٧) .

★ ★ ★

النبوءات أيضاً منحها الله للأنبياء دون أن يطلبوا ...

ومنحنا أيضاً هذه النبوءات لفائدتنا دون أن نطلب . وكل الذين أرسلهم الرب كأنبياء ، ما كانوا يفكرون أنهم سيصيرون هكذا . وإنما فى لحظة لا يعرفها أحد نسمع مثلاً أنه « كانت كلمة الرب إلى أرمياء النبى » (دا ٩ : ٢) أو صارت كلمة الرب لحزقيال (حز ٣ : ١٦) أو « صارت كلمة الرب إلى صفنيا » (صف ١ : ١) ... كل ذلك دون أن يطلب واحد منهم ...

واضح أن الرب يكلم البشر متى يشاء ، دون أن يطلبوا ...

إنه يقدم الحلم أو الرؤيا أو النبوءة ، أو الموهبة ، دون أن نطلب ، وربما فى وقت لا نتوقعه على الاطلاق .

وإن كان هذا بصفة عامة ، فبالأكثر مواهب العهد الجديد ..

٤ - مواهب العهد الجديد

إنها مواهب ما كان يحلم بها أحد ، وليس فقط أن يطلبها . ولعل فى مقدمة كل هذه المواهب :

التبرير ، والتجديد ، والتقديس . وكل ما نناله فى المعمودية المقدسة . وكما قال بولس الرسول : « الذين دعاهم ، فهؤلاء بررهم أيضاً . والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضاً » (رو ٨ : ٣٠) . بل أننا نقف مذهولين أمام قول هذا الرسول :

« لأنكم جميعكم الذين اعتمدتم للمسيح ، قد لبستم المسيح » (غل ٣ : ٢٧).

وقوله أيضاً إننا أعضاء جسد المسيح « ألستم تعلمون أن أجسادكم هى أعضاء جسد المسيح » (١ كو ٦ : ١٥) . مَنْ ذا الذى يطلب ، أو كان يفكر أن يطلب ، أن يكون جسده هو أعضاء المسيح ، أو أن يلبس المسيح ؟! ولكن الله يهبنا دون أن نطلب .

★ ★ ★

بل مَنْ كان يطلب أن يكون جسده هو هيكل الروح القُدس ؟!

ولكن هوذا الرسول يؤكد لنا هذه الحقيقة (١ كو ٦ : ١٩) ويكررها أيضاً قائلاً : « أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله يسكن فيكم » (١ كو ٣ : ١٦) .

إنها حقاً هبة مقدسة معطاة لنا من الله ، دون أن نطلب ...

كذلك أعطانا أن نكون شركاء الروح القدس (١ كو ١٣ : ١٤) وشركاء الطبيعة الإلهية (٢ كو ١ : ٤) فى العمل .. كل ذلك دون أن نطلب .

★ ★ ★

وموهبة أخرى اعطينا إياها أن نصير أولاد الله .

انظروا أية محبة أعطانا الآب ، حتى ندعى أولاد الله » (١ يو ٣ : ١) . بل أن ندعى أيضاً اخوة المسيح . واصبح هو لا يستحى أن يدعونا أخوة (عب ٢ : ١١ ، ١٢) .

وهناك موهبة أخرى عظيمة جداً اعطينا إياها فى العهد الجديد وهى :

★ ★ ★

اعطينا أيضاً سر الأفخارستيا ، دون أن نطلب ...

فى ساعة لم يكن يتوقعها التلاميذ ، وهبهم المسيح سر الافخارستيا (متى ٢٦ : ٢٦ ـ ٢٨) . أعطانا أن نأكل جسده ونشرب دمه (يو ٦ : ٥٤ ـ ٥٦) لكى نثبت فيه ، وتكون لنا فيه حياة .

أكنا نتخيل أن نطلب طلباً كهذا . ولكنها منحة مجانية فوجئنا بها ، كسائر نعم الله التى يهبها حسب عمق جوده ، دون أن نطلب .

٥ - كـرم الله فى عطاياه

اقصى ما كانت تطلب القديسة اليصابات ، أن يكون لها ابن . ولعلها نسيت هذه الطلبة بعد أن شاخت ، بل أن زوجها زكريا الكاهن استصعب هذا الأمر حينما بشره به الملاك ولم يصدقه (لو ١ : ١٨) كأن أوان طلبه قد فات .

ولكن الرب وهب زكريا واليصابات ، أعظم من ولدته النساء .

وهبهما هذا الأمر العظيم دون أن يطلباه . وهبهما الملاك الذى يهيىء الطريق قدامه (مر ١ : ٢) . وهبهما إنساناً يكون عظيماً أمام الرب ، ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس ، و يتقدم أمام الله بروح إيليا وقوته (لو ١ : ١٥ - ١٧) . وهبهما إنساناً قال عنه المسيح إنه « أعظم من نبى » وأنه « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (متى ١١ : ٩ - ١١) .

كل هذا ما كانت تطلبه اليصابات ، ولا طلبه زكريا ..

* * *

إنه عظم كرم الله الذى يعطى بسخاء فوق ما نطلب ... مهما طلبنا ستكون طلباتنا أقل بكثير من مستوى جود الله وكرمه ، الذى يعطى بسخاء .

كل ما تطلبه العاقر أن يكون لها ولد . ولكن الرب يقول لها فى سفر إشعياء النبي : « اوسعي مكان خيمتك ، ولتبسط شقق مساكنكِ ... لأنكِ تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار . و يرث نسلكِ أمماً ، و يعمر مدناً خربة » (إش ٥٤ : ١ - ٣) . كل هذا يعطيه لها دون أن تطلب .

ألعل هذا يشير إلى كنيسة الأمم العاقر التى لم تطلبه ؟!

أو ألعل هذا يشير إلى أية أقلية ضئيلة ، أو إلى أية نفس خالية من الفضائل ، عاقراً من جهة عمل الروح فيها ... !

* * *

ومثال آخر تلك الخاطئة المدوسة بدمها فى سفر حزقيال .

لعل كل ما كانت تطلبه أن يغسلها الرب فتطهر ، بمجرد أن تتوب و يقبل توبتها . أما الرب الحنون الكريم فى عطاياه فيقول لها : «حليتكِ بالحلى ... ووضعت تاج جمال على رأسكِ ... وجلتِ جداً جداً فصلحتِ لمملكة . وخرج لك اسم فى الأمم لجمالكِ ، لأنه كان كاملاً ببهائي الذى جعلته عليكِ ، يقول السيد الرب» (حز ١٦ : ١١-١٤) .

إنها درس فى الرجاء . التى لم تنتظر شيئاً ، نالت كل شىء ...

إن الله لا يستح من بنوتنا له ، إن وجد نفوسنا مطروحة على الحقل ، مدوسة بدمها ، عارية ومكروهة (حز ١٦ : ٥ ، ٦) . بل انه يغسلنا و يطهرنا ، و ينزع عنا عارنا ، فنصير له ، و يطرح علينا بهاءه ... و يضع تاج جمال على رؤوسنا ... حقاً ما أعظم الرجاء بالرب .

* * *

إن الله لا يعطى بمكيال ، بل يسكب سكباً ، بسخاء ، إنه يفتح لنا كوى السماء ، و يفيض علينا بركة لا توسع (ملا ٣ : ١٠) حتى نقول له : كفانا كفانا ... كل هذا دون أن نطلب ...

إنه لا يغسل الخاطىء فقط ، بل يجعله أبيض من الثلج ...

لم يسمح فقط بقبول الابن الضال ، بل اغدق عليه من كرمه وحنوه ، حتى جعل خاتماً فى اصبعه ، والبسوه الحلة الأولى ، وذبحوا له العجل المسمن ، وأقاموا فرحاً برجوعه (لو ١٥ : ٢٢ ، ٢٣) . أكان هذا الإبن يطلب شيئاً من هذا كله ، وهو الذى فكر أن يقول لأبيه : «إجعلنى كأحد أجرائك» (لو ١٥ : ١٩) . ولكن أباه أعطاه كل هذا ، دون أن يطلب ، وفى وقت كان يستحى فيه أن يطلب شيئاً ...

* * *

إن الله لا يعطى من أجل طلباتنا أو استحقاقاتنا ...

إنما يعطى من أجل جوده وكرمه ، ومن أجل احتياجاتنا .

طبعه هكذا : كريم وحنون وطيب . وطبعه هذا يغرس فى قلوبنا الرجاء مهما كان حالنا ، ومهما كنا غير مستحقين لشيء .

وقصص الكتاب لا تنتهى فى هذا المجال ، إنما نحن نذكر منها هنا مجرد مثال أو بعضاً من مثال ...

* * *

يوسف الصديق كل ما كان يطلبه أن يخرج من السجن ...

ولكن الله جعله الوزير الأول فى مصر والثانى فى المملكة ...

أكان يوسف يطلب هذا أو يحلم به ، كلا بلا شك . ولكن الله الحنون يعطى دائماً دون أن نطلب .

وقصة يوسف تبعث الرجاء فى كل قلب ... هذا الذى ساءت حالته إلى أبعد حد ، وبيع كعبد ، والقى فى السجن ، وطالت به المدة فى سجنه ، ولاحقته تهمة هو برىء منها ... ومع ذلك أصلح له الله كل أموره ، وأعطاه ما لم يخطر له على بال ...

* * *

ويظهر كرم الله وعطاياه فى مواعيده العجيبة .

هذا الذى قال : « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) « حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى ، فهناك أكون فى وسطهم » (متى ١٨ : ٢٠) . إنه يعطينا هذه الوعود المعزية كلها دون أن نطلب .

وتظهر محبة الله لنا أيضاً فى دعوته الإلهية .

٦- فى الدعوة الإلهية

كل تلاميذ المسيح أعطاهم شرف الرسولية ، دون أن يطلبوا ..

أكان يطلب هذا بطرس واندراوس وهما مشغولان بالصيد والشباك ؟! أكان يطلب هذا متى وهو فى مكان الجباية ؟!... وهكذا كل الباقين . والرب قد وضح هذا

الأمر حينما قال لتلاميذه: «لستم أنتم اخترتمونى، بل أنا اخترتكم، وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر، و يدوم ثمركم» (يو ١٥ : ١٦).

* * *

وكذلك أيضاً الأنبياء، نالوا جميعهم النبوة، دون أن يطلبوا ..

داود، وهو صبى صغير يرعى الغنيمات القليلات فى البرية، أكان يفكر أو يطلب أن يصير مسيح الرب، وأن يختاره الرب دون أخوته الكبار ودون كل الشعب ليصير نبياً له .. أم اختاره الله دون أن يطلب ؟!

وكذلك أرمياء الصغير الذى قال: «لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» أكان يحلم أن يصير نبياً للشعوب، أو كان يطلب هذا. أم أن الله دعاه دون أن يطلب ؟!

وهكذا إبراهيم أبو الآباء، الله هو الذى دعاه (تك ١٢ : ١).

و بالمثل كل الأنبياء، الذين انطبق عليهم قول الكتاب: «الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم... والذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضاً» (رو ٨: ٢٩، ٣٠) هو الله الذى اختار كل هؤلاء دون أن يطلبوا...

* * *

ومثال واضح جداً هو شاول الطرسوسى الذى كان يضطهد الكنيسة.

أكان شاول يفكر أن يصير رسولاً من رسل المسيح؟! مستحيل. بل إنه كان يقاوم المسيحية بافراط. ومع ذلك نقرأ أن السيد المسيح ظهر له فى طريق دمشق، ودعاه دون أن يطلب، واختاره رسولاً للأمم. ونسمع الروح القدس يقول للرسل: «افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه» (أع ١٣ : ٢).

* * *

وبالمثل، هل كانت راعوث تفكر أن تكون جدة للمسيح ؟!

قطعاً ما كان يخطر لها هذا ببال، وهى إمرأة امية غريبة الجنس! ولكن الله «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (رو ٤ : ١٧). ألا يعطى هذا الرجاء للناس ؟!

* * *

وأكثر من هذا راحاب . أكانت تطلب أن تصير جدة للمسيح ؟!

لعل اقصى ما كانت تطلبه الأمان لنفسها ولأهلها فى وقت اقتحام أريحا . أما أن تصير ضمن شعب الله ، فقد كان هذا كثيراً عليها جداً . ولكن أن تصير جدة للمسيح ، فهذا لم تطلبه اطلاقاً ، بل لم يخطر على بالها ، ولم تحلم به . ولكن الله الحنون يعطى دون أن نطلب . يحتاج الأمر أن نؤمن بمحبة الله وكرمه واهتمامه بنا

٧- العطاء والإيمان

القديسون لإيمانهم بأن الله يعطي دون أن نطلب ، كانوا يخجلون أن يطلبوا شيئاً . طلبتهم الوحيدة كانت هي الله نفسه ...

ولهذا يقول داود النبى فى صلاته : « طلبت وجهك ، ولوجهك يارب التمس . لا تحجب وجهك عنى » (مز ٢٦) . و يقول فى نفس المزمور « واحدة طلبت من الرب وإياها التمس ، أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى ، لكى أنظر نعيم الرب واتفرس فى هيكله » (مز ٢٦) . أما باقى الأمور فهى بسيطة ، يقضيها لنا الرب دون أن نطلب . أليس هذا هو ما قاله لنا السيد الرب :

« اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره . وهذه كلها تزاد لكم » (متى ٦ : ٣٣) .

لم يقل : « وهذه تطلبوها بعد ذلك » وإنما قال : هذه تزاد لكم . أى يعطيها الله لكم دون أن تطلبوا

ولهذا أيضاً كانت كل طلباتنا فى الصلاة الربية ، هى صلوات روحية تتعلق بملكوت الله وبره . والباقى يزاد لنا من الله دون أن نطلب . هو يعلم أننا نحتاج إلى هذه كلها ، فيعطيها لنا من عنده كأب شفوق يعرف احتياجات أولاده ، دون أن يجشمهم الالحاح عليه فى طلبها ..

* * *

ومع ذلك ، أعطى الله الضعفاء أن يطلبوا ما يشاءون ..

اطلبوا تجدوا (متى ٧ : ٧) فتفرح قلوبكم بالله الذى يعطى ، و يزداد إيمانكم

به . وكلما تعمق إيمانكم فى أن الله يعطى كل شيء ، حينئذ سوف لا تطلبون سوى الله وحده ، وملكوته و بره... « أطلبوا تأخذوا ، لكى يكون فرحكم كاملاً » (يو ١٦ : ٢٤) . وكل طلبة يسمعها الله منكم ، يتقبلها بحنو، كما من أفواه أطفاله الصغار.

عجيب هو إلهنا الحنون ، المعطى ، والمستجيب لطلبة أولاده .

★ ★ ★

إن الذى يؤمن بالله وعطائه ، ينام فى حضن الله و يستريح ..

و يكون واثقاً ان الله يدبر له كل شيء ... كما كان بطرس نائماً فى السجن مطمئناً إلى عمل الله من أجله . وكان **نومه ثقيلاً** لدرجة أن الملاك الذى انقذه ، لكزه أولاً وأيقظه (أع ١٢ : ٧) بينما كان هيرودس مزمعاً أن يقتله (أع ١٢ : ٤) . ومع ذلك نام ، واثقاً أن الله مستيقظ وساهر على خلاصه . ولهذا أيضاً نسمع داود النبى يقول فى المزمور:

« الرب يرعانى ، فلا يعوزنى شيء » (مز ٢٣ : ١)

ومادام لا يعوزه شيء ، إذن فهو لا يطلب ، لأن الله لم يتركه معوزاً شيئاً يطلبه . ولهذا نقول نحن أيضاً فى القداس الغريغورى : « لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك » .

★ ★ ★

فإن قال لك الله ماذا تطلب ، أتراك تجيب قائلاً :

وهل تركت لى شيئاً أطلبه ؟! إننى لو قضيت عمرى كله شاكراً ، فلن يكفى . لذلك ان رأيتنى يارب احتاج شيئاً ، اعطنى إياه .

إنك اغرقتنى بعطاياك ، وأعطيتنى فوق ما أطلب . ولم تدعنى معوزاً شيئاً ... كما إنك أدرى بما ينقصنى ، إن كان هناك شيء ينقصنى .

عملى الوحيد هو أن أشكر وأن أسبحك على كرمك ، لا أن أطلب ..

★ ★ ★

ولعل البعض يسأل : ماذا إذن عن الضيقات ؟ نقول :

إن أولاد الله المؤمنين برعايته وعطاياه ، لا ينزعجون ولا يقلقون . ويرون أنه مادام الأمر فى يد الله ، فهذا يكفى ...

هذا يكفى لاطمئنانهم وسلامهم . لأنه لا يوجد أحب من الله لهم ، ولا يوجد من هو أكثر عناية منه بهم . ومادام الله قد تسلّم كل أمورهم ، لم يعد لهم شيء يقولونه أو طلب يطلبونه .

★ ★ ★

يكفى للإنسان أن يطلب محبة الله ، لأنه يريد قلوبنا .

هو لا يرغمنا على محبته . يريدنا أن نحبه برضانا . وإن احوجتنا المحبة نطلبها منه . وهو يسكبها فى قلوبنا بالروح القدس . إنه لا يرهبنا بلاهوته ، بل يجذبنا بمحبته . ويريدنا أن نبادله حباً بحب ، لذلك يقول : «يا ابنى اعطنى قلبك» (أم ٢٣)

والذى تملك محبة الله على قلبه ، لا يشتهى فى العالم شيئاً ليطلبه .

بل هو يقول للرب : « معك لا أريد شيئاً على الأرض » (مز ٢٣ : ٢٥) ويقول مع القديس بولس الرسول : «خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية ، لكى أربح المسيح وأوجد فيه » (فى ٣ : ٨ ، ٩) .

★ ★ ★

هذا هو طلبك الوحيد : الله ومحبته وملكوته وبره ، وكفى

وكل الأمور الأخرى ، يمتلىء قلبك بالرجاء أن الله سيحلها دون أن تطلب . هو يعلم ما تحتاجه ، له المجد فى محبته ورعايته .

★ ★ ★

الفصل التاسع

الله
يعمل معنا

هناك أسباب جوهرية ... تجعل عمل الله معنا ضرورة :

منها قول الرب « ما أضيق البابـ وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة... وقليلون هم الذين يجدونه » (متى ٧ : ١٤)، فإن كان الأمر هكذا، فإن العدل الإلهى يقتضى أن توجد معونة إلهية، يمكننا بها أن نجتاز الباب الضيقَ ... ولهذا يقول الرب :

« بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) :-

مادام الأمر هكذا ، إذن لابد أن يكون الله معنا فى كل عمل نعمله ، وإلا فإننا سنقف عاجزين تماماً فى كل ما تكافح فيه ارادتنا سواء فى الجهاد ضد الخطية ، أو فى خدمتنا للملكوت ، أو فى اكتساب أية فضيلة .

وبخاصة لأننا مطالبون بالقداسة ومطالبون أيضاً بالكمال ...

إذ يقول الكتاب « نظير القدوس الذى دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين فى كل سيرة لأنه مكتوب : كونوا قديسين لأنى أنا قدوس » (١بط ١ : ١٥ ، ١٦) نحن لسنا مطالبين بالقداسة فقط ، بل أيضاً بالكمال فى هذه القداسة ... وذلك حسب قول الرب « كونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (متى ٥ : ٤٨) ولكى نصل إلى القداسة والكمال ، لابد بالضرورة أن معونة إلهية تحملنا فى الطريق .

* * *

يضاف إلى هذا أن عدونا قوى ... وحيله كثيرة وماكرة .

قال عنه الكتاب « ابليس عدوكم مثل أسد زائر ... فقاوموه راسخين فى الإيمان » (١بط ٥ : ٨ ، ٩) . ترى بأى إيمان نقاومه ؟ بالإيمان أن الله هو الذى يغلبه فى حربه معنا ... كما قيل فى سفر أيوب ، « الله يغلبه لا الإنسان » (أى ٣٢ : ١٣) . نعم ، إننا لا نستطيع بغير عمل الله معنا أن نغلب تلك الخطية التى قيل عنها إنها « طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) الضرورة إذن تلزم وجود معونة إلهية .

لأنه بالإضافة إلى قوة عدونا طبيعتنا أيضاً ضعيفة .

وهكذا فإن داود النبي في حديثه عن عظم مغفرة الله ، يقول «لأنه يعرف جبلتنا ، يذكر أننا تراب نحن» (مز١٠٣ : ١٤) . و يقول في كثير من مزاميره «ارحمني يارب فإني ضعيف» (مز٦ : ٢) . هذا الضعف الذي بسببه تحدث الكتاب عن أخطاء الأنبياء ... فإن كان هؤلاء العظام قد اخطأوا ، فماذا يحدث لنا ، إن لم تسندنا معونة الله ... وهي لابد تفعل ، حسب قول الرسول :

«حيث كثرت الخطية ، ازدادت النعمة جداً» (رو ٥ : ٢٠) .

نعم تزداد النعمة ، لكي تنقذنا من هذه الخطية ... وهكذا يصرخ داود النبي إلى الرب و يقول «وأنت يارب عرفت سبلي ... في الطريق التي اسلك ، اخفوا لي فخاً ... تأملت عن اليمين وأبصرت ، فلم يكن من يعرفني . ضاع المهرب مني ، وليس من يسأل عن نفسي ... فصرخت إليك يارب وقلت أنت هو رجائي وحظي في أرض الأحياء ... نجني من الذين يضطهدونني لأنهم قد اعتزوا أكثر مني» (مز١٤١) واحمني من قوتهم ، ومن ضعفي .

* * *

ومن ضعف الطبيعة البشرية : الجهل والشهوة وعدم الإرادة .

أحياناً يجهل الإنسان الطريق إلى الله ، يجهل الوسيلة التي بها يخلص . لهذا يقول المرتل في المزمور «علمني يارب طرقك ... فهمني سبلك» (مز١١٩) «علمني يارب الطريق التي اسلك فيها ... علمني أن أصنع مشيئتك» (مز١٤٣) و يتغنى بارشاد الرب فيقول : «الرب صالح ومستقيم ... لذلك يرشد الذين يخطئون في الطريق ... يعلم الودعاء طرقه» (مز٢٥) إذن لابد أن يتدخل الله ، ليرشد الإنسان في الطريق .

والإنسان قد يعرف ... ومع ذلك إرادته لا تساعده .

إما أنه لا يريد الخير ، بسبب محبته للخطية ، وإما أنه يريد ولا يستطيع ... وهكذا يقول القديس بولس الرسول «إني أعلم أنه ليس ساكناً في ـأي في جسدي ـ شيء صالح . لأن الارادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد ، لأني لست أفعل الصالح الذي أريده ، بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل .. لست بعد أفعله أنا ، بل الخطية الساكنة فيَّ» (رو٧ : ١٨ ـ ٢٠) .

لذلك ، فإن الله - بنعمته يعمل فى الإنسان .

وهكذا فإن القديس بولس الرسول ينسب كل ما يعمله إلى نعمة الله العاملة فيه ، فيقول « ولكن لا أنا ، بل نعمة الله التى معى » ... « ولكن بنعمة الله أنا ما أنا ... » (١كو١٥ : ١٠) . ويرسل إلى تلميذه تيموثاوس ليقول له « فتقو أنت يا ابنى بالنعمة » (٢تى ٢ : ١٠) ... »

ولأهمية النعمة ... فإن الآباء الرسل يبدأون بها رسائلهم .

هكذا فى رسائل القديس بولس تتكرر فى مقدمتها عبارة « نعمة لكم وسلام » (رو١ : ٧ ؛ ١كو١ : ٣ ؛ ٢كو١ : ٣ ؛ غل١ : ٣ ؛ أف١ : ٢ ؛ فى١ : ٢) ... والقديس بطرس الرسول يقول فى بدء رسالتيه لتكثر لكم النعمة والسلام (١بط ١ : ١ ؛ ٢بط ١ : ٢) ، والقديس يوحنا يقول للسبع الكنائس فى مقدمة سفر الرؤيا « نعمة لكم وسلام » (رؤ١ : ٤)

ويميز النعمة التى نلناها فى العهد الجديد بقوله « لأن الناموس بموسى أعطى ... وأما النعمة والحق ، فبيسوع المسيح صارا » (يو١ : ١٧) .

هذه النعمة هى قوة من الله تعمل معنا وفينا .

وهى أيضاً التى كانت تعمل فى آبائنا الرسل ، حتى أمكنهم أن يقوموا برسالتهم ، ويشهدوا للرب ، « وبقوة عظيمة كانوا يؤدون الشهادة ... ونعمة عظيمة كانت على جميعهم » (أع ٤ : ٣٣) والقديسة الطاهرة العذراء مريم ، حياها الملاك بعبارة ، « سلام لك أيتها الممتلئة نعمة الرب معك » (لو١ : ٢٨) .

* * *

الله يعمل فينا بنعمته ... وبشركة روحه القدوس .

فالروح القدس يشترك معنا فى العمل ، ويعطينا قوة ... ولذلك قال السيد المسيح لتلاميذه القديسين « ولكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم ، وحينئذ تكونون لى شهوداً » (أع ١ : ٨) .

وبهذا كانت « شركة الروح القدس » بركة توهب للمؤمنين إذ يقول القديس

بولس الرسول فى آخر رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس «نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس مع جميعكم» (٢كو١٣ : ١٤)، وهذه هي البركة التي تمنحها الكنيسة لأولادها فى آخر كل اجتماع.

* * *

وبالإضافة إلى شركة الروح القدس، يقول لنا السيد المسيح:

«ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر» (متى ٢٨ : ٢٠).

إنه وعد عظيم يمنحنا رجاء أن يكون الرب معنا كل الأيام. ويقول أيضاً «حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة بإسمى فهناك أكون فى وسطهم» (متى١٨ : ٢٠). وقد صور لنا سفر الرؤيا السيد الرب فى وسط الكنائس السبع ورعاة هذه الكنائس عن يمينه (رؤ١ : ١٣؛ ١٦ : ٢٠). إنه معنا، يعمل فينا، ويعمل بنا، ويعمل معنا... هذا عن الإبن، وماذا عن الآب؟ يقول السيد الرب:

«أبى يعمل حتى الآن، وأنا أيضاً أعمل» (يو ٥ : ١٧).

إن عمل الله لم ينته بالخلق، حينما استراح الله فى اليوم السابع! فالله يعمل باستمرار يرى كل شيء ويرقب، كضابط للكل... وهو يعمل فى رعاية هذه البشرية، ويسند ويساعد ويعين ويحفظ... وقد قيل عن الآباء الرسل «فخرجوا، وكرزوا فى كل مكان. والرب يعمل معهم، ويثبت الكلام بالآيات التابعة» (مر١٦ : ٢٠). وقال داود النبى عن عمل الرب «ما أعظم أعمالك يارب... كلها بحكمة صنعت» (مز١٠٤ : ٢٤).

* * *

الثالوث القدوس إذن يعمل معنا، وتعمل معنا ملائكته.

قال الرسول عن الملائكة، أليسوا جميعاً أرواحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب١ : ١٤) ملاك من السارافيم طار بسرعة وأخذ جمرة من على المذبح ومسح بها شفتى اشعياء النبى لما سمعه يقول «ويل لى قد هلكت، لأنى إنسان نجس الشفتين» (اش٦ : ٥ - ٧) وملاك آخر وقف يدافع عن يهوشع الكاهن لما رأى الشيطان وقال له «لينتهرك الرب يا شيطان لينتهرك الرب» (زك٣ : ٢).

ويعوزنى الوقت إن تحدثت عن عمل الملائكة من أجل البشر بأمر من الرب : مثل قول دانيال النبى « إلهى ارسل ملاكه فسد أفواه الأسود » (دا ٦ : ٢٢) ، ومثل انقاذ الملاك لبطرس من السجن (أع ١٢) ومثل قول الكتاب « ملاك الرب حال حول خائفيه و ينجيهم » (مز ٣٤ : ٧) . ومثل قول الكتاب عن عمل الله من أجلنا فى ضيقاتنا « فى كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم » (أش ٦٣ : ٩) .

* * *

الله يعمل لأجلنا فى كل ضيقاتنا وتجاربنا ...

إنه يقول لكل منا « لا أهملك ولا أتركك ، تشدد وتشجع . لا ترهب ولا ترتعب لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش ١ : ٥ ، ٩) . وقال لارمياء النبى « لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لانقذك » (ار ١ : ٨) . وقال للقديس بولس الرسول « لا تخف ، بل تكلم ولا تسكت ، لأنى أنا معك . ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ٩ ، ١٠) .

* * *

حتى فى الكلام ، الله يكون معنا ، ليتكلم على ألسنتنا :

إنه يقول لنا « لا تهتموا كيف أو بما تتكلمون ، لأنكم تعطون فى تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين ، بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم » (متى ١٠ : ١٩ ، ٢٠) . وبولس الرسول يطلب صلاة أهل أفسس لكى يعطى له كلام عند افتتاح فمه (أف ٦ : ١٩) ، وداود النبى يقول « افتح يارب شفتى ، لكى يخبر فمى بتسبحتك » (مز ٥٠) وارمياء النبى قال له الرب « ها قد جعلت كلامى فى فمك » (ار ١ : ٩) .

* * *

ومن جهة التوبة ، الله هو الذى يعمل فينا لنتوب ، لذلك يقول الكتاب :

« توبنى فأتوب ، لأنك أنت الرب إلهى » (ار ٣١ : ١٨) .

روح الله هو الذى يبكتنا على خطية (يو ١٦ : ٨) وهو الذى يرشدنا إلى طريق البر . والمرنم يقول عن عمل الرب فى التوبة « انضح على بزوفاك ، فاطهر ، واغسلنى

فأبيض أكثر من الثلج » (مز ٥٠). ونحن نصلى فى قداساتنا ونقول «طهر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا» والله هو الذى منحنا فى المعمودية غسيل الميلاد الثانى (تى ٣ : ٥). ووعدنا فى سفر اشعياء بهذا التطهير (اش ١ : ١٨)، وكذلك فى سفر حزقيال (حز ٣٦ : ٢٥) ومن العبارات التى تستحق شيئاً من التأمل قول المرتل فى المزمور:

« قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده فى أحشائى » (مز ٥٠).

إذن فوجود هذا القلب النقى هو من عمل الله، يخلقه خلقاً من لا شىء، ويجدد الروح ... و يقول الرب فى سفر حزقيال «وأعطيكم قلباً جديداً، واجعل روحاً جديداً فى داخلكم ... واجعل روحى فى داخلكم ... واجعلكم تسلكون فى فرائضى. وتحفظون احكامى وتعملون بها» (حز ٣٦ : ٢٦، ٢٧) واضح أنه عمل الرب فينا.

* * *

« إنه الله الذى يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤).

وهو لا يريد فقط، وإنما يريد و يعمل على خلاصنا. هو الذى دبر طريقة الفداء والكفارة ... وهو الذى اخلى ذاته وتجسد ... هو الذى أحب «أحب العالم حتى بذل إبنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣ : ١٤).

* * *

هو الذى أعطى الرسل المصالحة ... ليصالحونا معه.

وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول «... الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة ... إذن نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا ... نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله» (٢كو ٥ : ١٨، ١٩).

* * *

هو الذى قال : أنا واقف على الباب وأقرع (رؤ ٣ : ٢٠).

إنه يقرع على باب كل نفس و يبحث عن خلاص على كل نفس، كما بحث عن

الخروف الضال والدرهم المفقود (لو١٥) وهو من أجل هذا الخلاص أرسل الأنبياء والرسل، والرعاة والمعلمين، وأرسل لنا كلامه بالوحي الإلهي.

الله أيضاً يعمل لأجلنا بالحفظ الإلهي ...

وبهذا يتغنى المرتل فيقول في المزمور «لولا أن الرب كان معنا حين قام الناس علينا، لابتلعونا ونحن أحياء ... مبارك الرب الذي لم يسلمنا لأسنانهم ... نجت أنفسنا مثل العصفور من الصيادين» (مز١٢٣)، وداود النبي يقول لجليات «الحرب للرب، وهو يدفعكم ليدنا» (١صم١٧ : ٤٧). وموسى النبي قال للشعب «قفوا وانظروا خلاص الرب ... الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر١٤ : ١٣، ١٤).

إن الشيطان يريد أن يوقعنا في اليأس ... بأن ينسينا عمل الله من أجلنا.

ومن السهل أن نرد عليه. إن قال لنا أن طريق الرب صعبة نقول له يكفي أن الله معنا في الطريق ... وهو يجعل الصعب سهلاً ... وإن قال لواحد منا أن نفسك لا تريد التوبة، نقول له: يكفي أن الله يريدها لنا وهو لاشك سيقودنا إليها ... وإن أخافنا من الأعداء الكثيرين نقول له: إن الذين معنا أكثر من الذين علينا.

* * *

إن الله يعمل لأجلنا. ولكن يجب علينا الاستجابة له ... والشركة معه.

وفي هذا يقول الرسول، «إن سمعتم صوته، فلا تقسوا قلوبكم» (عب٣ : ٨) الله يعمل ... ولكن ينبغي أن نشترك معه في العمل ... هو يرسل روحه القدوس لأجل تقويتنا، وارشادنا. ولكن ينبغي لنا أن ندخل في شركة الروح القدس.

وبهذا يكون الخلاص هو نتيجة عمل الله فينا ... ومعه قبولنا لهذا العمل ... واشتراكنا مع الروح في وسائط النعمة.

وكل ذلك يبعث الرجاء في النفس. ولكن ...

لعل إنساناً يقول إنني طلبت من الله كثيراً وهو لم يستجب! ومازلت في ضيقة، والله لم يتدخل! فأين الرجاء إذن؟ لمثل هذا الإنسان، قال المرتل في المزمور:

«انتظر الرب. تقو وليتشدد قلبك، وانتظر الرب» (مز٢٧).

* * *

الفصل العاشر

انتظر الربّ

عن محاضرتين ألقيتا فى الكاتدرائية الكبرى بدير الأنبا رويس بالقاهرة .

أحدهما مساء الجمعة ١٩٧٦/١٢/١٠م / والثانية مساء الجمعة ١٩٨٠/٥/٢م

لا شك أن الله يعمل ، و يعمل فى هدوء ، من أجل كل مخلوقاته ، كراع صالح للجميع ، يريد الخير للكل .

غير أن البعض إذا تعبوا ، أو إذا ظنوا أن الله قد تأخر عليهم ، يخيل إليهم أنه لا يعمل !!

يظنون هذا خلال مشاكلهم ، بينما يكون الله فى عمق العمل من أجلهم ، وهم لا يعلمون . أو أن هؤلاء يعوزهم أن ينتظروا ليروا عمل الرب ، أو ليروا نتيجة عمله على وجه أصح ... ليروا بالعيان ما كان يجب أن يصدقوه بالإيمان ...

« انتظر الرب . تقوَ وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز ٢٦ ، ٢٧) .

* * *

نوعية الانتظار

الذى ينتظر فى رجاء ، إنما ينتظر الرب بقلب مملوء بالإيمان و بالثقة . فى غير شك ، و بغير قلق ولا اضطراب ولا تضايق . ينتظر وهو مؤمن أن الرب لابد سيتدخل ، ولابد سيعمل ، وأن الأمور لابد تنتهى إلى خير ، حسب قول الكتاب :

« كل الأشياء تعمل معاً للخير ، للذين يحبون الله » (رو ٨ : ٢٨) .

وهكذا يصف لنا الكتاب الرجاء العظيم لمنتظرى الرب فيقول « وأما منتظرو الرب فيجدون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور . يركضون ولا يتعبون ويمشون ولا يعيون » (اش ٤٠ : ٣١) ... القوة التى هزتها الضيقة ، تتجدد بالرجاء ، بانتظار الرب . كما قيل فى المزمور « يجدد مثل النسر شبابك . إذن ينبغى أن الإنسان ينتظر الله ، بقلب قوى متشدد ، بإيمان واثق .

واثق أن الله لابد سيعمل. وسيظهر عمله واضحاً وقوياً. والله يعمل فى الوقت المناسب، وبالطريقة المناسبة، النافعة.

ليس من اللائق أن نفرض على الله وقتاً معيناً أو اسلوباً خاصاً. فقد قال الرب «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه وحده» (أع ١ : ٧). يكفى أن تترك مشكلتك فى يد الله وتنساها هناك، وأنت واثق أن الله سيحلها... أما متى؟ فهذا ليس لك أن تفحصه. يكفى أنها ستحل بيد الله، فى الحين الحسن. وما عليك إلا أن تنتظر الرب.

* * *

ثلاثة أمور يرتكز عليها انتظارك

١ - رجاؤك فى انتظار الله يرتكز على إيمانك بمحبة الله لك.

الله الذى يحبك، أكثر مما تحب أنت نفسك. والذى يعمل من أجلك الخير، أكثر مما تستطيع أن تعمل أنت من أجل نفسك. الله الذى يريد أن الجميع يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون» (١تى ٢ : ٤). الله الذى نقشك على كفه، وحفظك فى يمينه الحصينة، والذى يقول لك «لا أهملك ولا أتركك» (يش ١ : ٥).

* * *

ب - رجاؤك أيضاً فى انتظار الرب، يرتكز على إيمانك بحكمته :

حكمته غير المحدودة، التى هى فوق مستوى تفكيرك، وفوق مستوى تفكير غيرك. الحكمة التى تعرف ما هو الخير لأنها ترى كل شىء، وتبصر مالا تبصره أنت. هذه الحكمة التى أدركها أيوب الصديق أخيراً، فقال «قد نطقت بما لم أفهم. بعجائب فوقى لم أعرفها» (أى ٤٢ : ٣).

تأكد إذن أن الله يدبر أمورك بحكمة، سواء فهمتها أم لم تفهمها... سلم قلبك لحكمته وانتظر...

* * *

ج - رجاؤك أيضاً فى انتظار الرب ، يرتكز على إيمانك بمواعيده :

مواعيده التى قال فيها « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) . إن نسيت الأم رضيعها أنا لا أنساكم (اش ٤٩ : ١٥) « نقشتكم على كفى » (اش ٤٩ : ١٦) . « تشدد وتشجع لا ترهب ولا ترتعب . لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش ١ : ٩) « لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك » (يش ١ : ٥) « أنا معك ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (اع ١٨ : ١٠) .

لاتلجأ إلى الطرق البشرية

الذى ييأس من انتظار الرب ، قد يلجأ إلى الطرق البشرية . يعتمد على الذكاء أو المكر والدهاء . كما فعلت رفقة ، عندما ظنت أن الوقت قد فلت ، وسوف تضيع البركة التى وعد بها ليعقوب (تك ٢٥ : ٢٣) ، فلجأت إلى طريق بشرى ، خدع فيه يعقوب أباه القديس اسحق (تك ٢٧) .

وأيضاً أبونا ابراهيم لما يئس من انتظار الرب ، لجأ إلى الطرق البشرية ، فأخذ هاجر لتلد له ثم عاد ابراهيم وأخذ قطورة (تك ٢٥ : ١) . وكانت طرقاً مرفوضة من الرب .

* * *

والبعض حينما ييأس من انتظار الرب ، قد يلجأ إلى السحرة والعرافين ، وإلى طرق بشرية كاللجوء إلى استشارة الموتى !!

الأمر الذى اعتبره الرب من رجس الأمم . وقال فى ذلك « ...لا تتعلم أن تفعل مثل رجس تلك الأمم . لا يوجد فيك من يجيز إبنه أو إبنته فى النار ، ولا من يعرف عرافة ، ولا عائف ، ولا متفائل ، ولا ساحر . ولا من يرقى رقية ، ولا من يسأل جاناً ولا تابعة ، ولا من يستشير الموتى . لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » (تث ١٨ : ٩ - ١٢) كلها طرق بشرية مرفوضة من الله . وبعضها طرق شيطانية .

ومثل ذلك من يلجأ إلى التنويم المغناطيسى ، وما يعرف بالسلة . ومن يؤمن

بالعمل وإبطاله، ومن يلجأ إلى من يقرأ الفنجان، ومن يقرأ الكف، ومن «يضرب الرمل» ومن «يعرف البخت»، وأمثال هذه الطرق ...

إن الله يريدك أن تكون تحت قيادته: تأخذ معرفتك منه. وكثيراً ما تغنى داود النبى بأن خلاصه من عند الرب أو أن الرب نفسه قد صار له خلاصاً. والعجيب أن بعض الذين يلجأون إلى هذه الأمور يريحون ضمائرهم الثائرة عليهم أو ضمائر الناس الساخطة عليهم، بأن هذه الأمور تدخل تحت نطاق العلم، وأن الكنيسة لا يجوز لها أن تقاوم العلم !!

★ ★ ★

فى الكتاب المقدس يقول الرب إن استشارة الموتى هى من رجس الأمم، وأنها مكروهة عند الرب، فيقول البعض إنها علم، ولا يجوز للكنيسة أن تقف ضد العلم !!

حتى إن كان علماً، فهو رجس ومكروه عند الرب.

والعجيب أن السحر نفسه، الذى هاجمه الكتاب. وقال الرب «لا تدع ساحرة تعيش» (خر٢٢ : ١٨). وقال إن خارج الملكوت «...السحرة وعبدة الأوثان... نصيبهم فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت» (رؤ٢١ : ٨)... السحر يرى البعض أن هناك نوعاً مقبولاً خنه يسمونه «السحر الأبيض» ولم أقرأ فى الكتاب اطلاقاً عبارة «السحر الأبيض» !!

★ ★ ★

أما أنت فلا تلجأ إلى أمثال هذه الطرق، إنما الجأ إلى الله وانتظره. ومهما تأخر لا تلجأ إلى السحر واشباهه.

إنها تعبير إما عن فشل و يأس أو هى دليل عملى على اللجوء إلى غير الله. أو هى ضيق فى القلب لا يستطيع أن ينتظر الرب. أو هى استهانة بأمر الله الصريح الوارد فى (تث١٨). لقد ضرب الرب شاول الملك وأماته لأنه لجأ إلى مثل هذا الطريق... (١صم٢٨). أما أنت فاستمع لأمر الرب الصريح. ولا تلجأ إلى طرق خاطئة كهذه مهما ظننت أنه قد تأخر عليك.

ولكن لعل إنساناً يسأل : إلى متى أنتظر الرب ؟ ...

إلى متى ننتظر ؟

يقول المرتل فى المزمور « صبرت نفسى للرب . صبرت نفسى لناموسك انتظرت نفسى الرب من محرس الصبح حتى الليل » (مز ١٢٩) و يضيف بعدها « لأن الرحمة من عند الرب ، وعظيم هو خلاصه » ... وربما عبارة « من محرس الصبح حتى الليل » - فى معناها الرمزى - تعنى العمر كله ، أو تعنى الوقت كله .. أو عبارة « حتى الليل » قد تعنى : حتى الظلمة ، حتى عمق اشتداد المشكلة ...

ننتظر الرب ، ونحن متأكدون تماماً أنه لا بد سيجىء و يصنع خلاصاً . أما متى يجىء ؟ أصباحاً ، أم ظهراً ، أم فى نصف الليل ، أم فى الهزيع الرابع ؟ لسنا ندرى ...

* * *

لا نعرف متى يجىء . ولكن ما يسعدنا حقاً ، أنه لا بد سيجىء ..

الوقت أو الميعاد ، نتركه لحكمته الإلهية . ولكن نفرح بانتظار مجيئه ، حسب وعده الصادق « لا أترككم يتامى . إنى آتى إليكم » (يو ١٤ : ١٨) . « سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم . ولا ينزع أحد فرحكم منكم » (يو ١٦ : ٢٢) . إن الصليب قد يحمل ألماً . والقيامة معها فرح الرجاء ...

وكل صليب لا بد بعده قيامة . والوعد بالقيامة يحمل الرجاء ...

لذلك كن واثقاً ، ولا تيأس . وانتظر الرب فى عمق السلام الداخلى . وكلما احاطت بك ضيقة ، قل : إننى اسمع صوت حبيبى « هوذا آتٍ ، ظافراً على الجبال ، قافزاً على التلال » (نش ٢ : ٨) .

* * *

وإن صادفتك مشكلة ، لا تجعلها تتعبك كما يحدث لفاقدى الرجاء . بل قل فى ثقة : إن الله لا بد سيحلها . وإن لم تحل فى هذه الأيام ، ستحل فى الأسابيع المقبلة . وإن لم تحل فى هذه الأسابيع ، ستحل فى الشهور المقبلة ، أو فى السنوات المقبلة . انها

لا بد ستحل ، مهما مرّ الوقت عليها . أنا واثق يارب فى تدخلك . واثق فى حكمتك وفى عملك ، وأنك لن تتخلى .. لذلك مهما مر الوقت ، نحن لا نحزن ، كما قال الرسول :

« لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم » (١ تس ٤ : ١٣) .

إن ثقتنا بعمل الله ، لا تسمح أبداً للحزن أن يدخل إلى قلوبنا . فلنثق به إذن . عجيب اننا نثق أحياناً بالطرق البشرية ، وبالوسائط العالمية ، ونثق بالآخرين ، ونثق بأنفسنا ، بذكائنا وفهمنا وقدراتنا .. أما الله ، فكثيراً ما تهتز ثقتنا ونحن ننتظره !! فلماذا ؟ ألعله (التأخير) فى الاستجابة هو الذى يجعلنا نشك أو نحزن .

* * *

إذن فلنبحث موضوع التأخير هذا لنفهمه جيداً ... وكمقدمة له نقول : إن الله يعمل ، مهما بدا لنا أنه قد تأخر علينا ...

مهما بدا أنه تأخر

الله لا يتأخر مطلقاً . عبارة «تأخر» هنا لها معنى نسبى ، بالنسبة إليك ! وكذلك عبارة «لا تبطىء» (مز٦٩) . أى لا تجعلنى أشعر أنك قد أبطأت علىّ وتأخرت !

إن الله يعمل بطريقة هادئة متزنة ، قد نحسبها نحن بطئاً .

كل أعمال الله تكون فى وقتها المناسب . لا سرعة فيها ولا تأخير. وتوقيتها محسوب بحكمة إلهية عجيبة ، بكل دقة .

* * *

لقد وعد الله آدم وحواء بالخلاص ... ومرت آلاف السنوات ...

قال لهما إن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية . ومرت آلاف السنوات ، والحية لا تزال رافعة رأسها فى شموخ ! وبدا أن نسل المرأة فى انهيار مستمر... حتى ان الله اغرق العالم بالطوفان ، وأحرق سادوم بالنار ، وأمر الأرض أن تفتح فاها لتبتلع قورح

ودثان وابيرام ... وبقى وعد الله قائماً ...

هلك هذا النسل . ولو !! لنا رجاء فى نسل آت للخلاص ..

كان الرجاء معلقاً فى أولاد نوح . أفسد أغلبهم ؟! يبقى الرجاء فى أولاد إبراهيم . أفسد أغلبهم؟ يبقى الرجاء فى أولاد يعقوب ... لابد سيحقق الله وعده بالخلاص .. ومهما انتظر سمعان الشيخ طويلاً ، لابد سيأتى عليه الوقت الذى يقول فيه ـ وهو يحمل المسيح ـ « الآن يارب تطلق عبدك بسلام ، لأن عينىّ قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ ، ٣٠) . حتى المرأة السامرية ـ على الرغم من كثرة خطاياها ـ لم يفارقها مطلقاً هذا الرجاء فى مجىء المسيح ، لذلك قالت : « أنا أعلم أن مسيا ، الذى يقال له المسيح ، يأتى ... » (يو ٤ : ٢٥) .

وكثيرون رقدوا قبل أن يبصروا الخلاص . ولكن رقدوا على رجاء ..

وفى ذلك يقول معلمنا القديس بولس الرسول : « فى الإيمان مات هؤلاء اجمعون ، وهم لم ينالوا المواعيد . بل من بعيد نظروها ، وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض » (عب ١١ : ١٣) . هؤلاء رتلوا مع المزمور «لأنك لن تترك نفسى فى الجحيم ، ولن تدع قدوسك يرى فساداً » (مز ١٦ : ١٠) . وفى كل ذلك سنسأل سؤالاً هاماً وهو:

* * *

هل حقاً تأخر الله فى تنفيذ وعده بخلاص العالم ؟

كلا ، إنه لم يتأخر الوقت على الرغم من مرور آلاف السنين . بل انه كان يعد البشرية لاستقبال هذا الخلاص ... يعدهم بالنبوات وبالرموز وبالتوبة وبالإيمان . كم من الذبائح والمحرقات قدموها ، حتى صارت عقيدة الكفارة والفداء راسخة فى أذهانهم ، وصارت المغفرة بالدم أمراً سهلاً مقبولاً ... وانتظر الرب حتى اصبح الإيمان ممكناً ، حتى وسط الأمم . وانتظر الرب حتى يوجد المعمدان الذى يعد الطريق قدامه ، وحتى توجد العذراء الطاهرة التى تكون اناء للتجسد ، والتى تقدر على احتمال ذلك المجد العظيم .

إذن لم تكن مرحلة تأخير، إنما مرحلة إعداد تقوى الرجاء ..

ونفذ الله وعده الذى لم ينسه مطلقاً خلال آلاف السنين، بل كان يمهد له... وأخيراً استطاع نسل المرأة أن يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥). وتم فعلاً ما قاله لابينا إبراهيم: «بنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض» (تك ٢٢ : ١٨؛ أع ٣ : ٢٥).

لقد خلصهم «فى ملء الزمان» (غل ٤ : ٤)

* * *

مفهومنا الخاطئ للتأخير

نحن نقول انتظر الرب. فهل ننتظر الرب حتى يبدأ العمل، واثقاً أنه سوف يعمل؟ كلا. فهذه تعبيرات مقدمة للمستوى البشرى فى الفهم. فما الحقيقة إذن؟

انتظر الرب واثقاً، ليس أنه سيعمل، بل واثقاً أنه يعمل فعلاً، وربما قبل أن نطلب منه نحن.

ربما كنيسة محتاجة إلى كاهن يرعاها، وتطلب من الرب هذا، ويبدو أن الرب قد تأخر عليها عامين أو ثلاثة، حتى أرسل لها الكاهن المطلوب...! بينما تكون الحقيقة أن الله كان يعد لها هذا الكاهن منذ ثلاثين أو أربعين عاماً مضت، قبل أن تطلب... يعده بروحيات معينة، وبعلم ومعرفة وحكمة وتداريب، ويعده ربما بتجارب وضيقات، وبخبرات روحية، تجعله الشخص النافع والمناسب لهذه الكنيسة... ونحن الذين لا نرى ولا نعرف اعدادات الله، ونظنه قد تأخر!!

* * *

أسباب وحكمة ما نظنه تأخيراً

١ - ربما يكون مجالاً لتعميق صلواتك وروحياتك.

هذا (التأخير) يجعلنا نصلى، ونتضرع ونداوم اللجاجة بقوة ومن عمق القلب،

ومن عمق الاحتياج ، وربما نضيف إلى الصلاة صوماً ، وتذللاً أمام الله ، ونذراً . مثال ذلك حنة أم صموئيل : لما كانت عاقراً ، وقد تأخر عليها الانجاب وكانت ضرتها تغيظها ، يقول الكتاب إنها «صلت إلى الرب ، وبكت بكاءً ، ونذرت نذراً» (١صم١ : ٩- ١٢) وتعهدت بأن الإبن الذى يعطيها الرب إياه يكون نذيراً للرب يخدمه كل أيام حياته . وهكذا استفادت من هذا (التأخير) . أو قل أن الرب وجد أن الوقت المناسب لمنحها نسلاً ، هو الوقت الذى تصل فيه إلى هذه الحالة الروحية ، بدون تأخير .

* * *

٢ ـ ربما يكون السبب أن الرب يعد طريقاً أفضل :

لو استجاب الرب ليوسف الصديق منذ أول إلقائه فى السجن ، ربما كان مصيره أن يخرج ليخدم فوطيفار أو سيداً آخر ، أو فى أية وظيفة مماثلة ولكن (التأخير) لم يكن تأخيراً ، وإنما انتظاراً للحلم الذى يحلمه فرعون ، ويفشل فى معرفة تفسيره ، ويكون رئيس سقاته معه ، فيخبره بيوسف ، ويفسر يوسف الحلم بحكمة ويصير الوزير الأول لمصر وأباً لفرعون إذن ما بدا تأخيراً ، كان إعداداً لوضع أفضل .

* * *

٣ ـ وربما يكون السبب هو اختبار إيماننا :

هل نتضايق حينما لا تستجاب صلواتنا فى ذات الوقت ؟ هل نتذمر؟ هل نلجأ إلى غيره ؟ هل يشكو للكل ؟ هل نجدف عليه ؟ أم أننا نصبر فى إيمان وفى رجاء وثقة ؟... إنه اختبار من الله لإيماننا ، اختبار منا لأنفسنا . حتى إن وجدنا فى أنفسنا ضعفاً ، نعالجه .

* * *

٤ ـ وربما يكون السبب هو أن نحصل على انسحاق القلب :

إن استجابة كل صلاة فى وقتها ، ربما تؤدى بنا إلى الافتخار والمجد الباطل . بينما هذا (التأخير) قد يوصلنا إلى التواضع والانسحاق ، فندرك أننا لسنا شيئاً ...

* * *

٥ ـ وقد يكون السبب هو أن نصطلح مع الله :

فإن (تأخر) علينا فى الاستجابة ، قد نراجع أنفسنا ، هل نحن أخطأنا إلى الرب ، فلم يستجب بسبب خطايانا ؟ وهنا نتذكر قول الرب «ارجعوا إلىّ فارجع إليكم» (ملا ٢ : ٧) يقودنا هذا الأمر إلى التوبة . و يكون وصولنا إلى التوبة هو الموعد المناسب الذى حدده الله ، بلا تأخير.

* * *

٦ ـ ربما يكون السبب هو أن ما نناله بسرعة ، لا نشعر بقيمته :

وقد لا نشكر عليه ، فإن (تأخرت) الاستجابة ، يزداد تعلقنا بالمطالبة وشعورنا بقيمة تحقيقها . فإذا ما استجيبت بعد حين ، يزداد شكرنا لله ولا ننسى احسانه إلينا . وهذا يعمق ارتباطنا به ، كذلك نحرص على ما نلناه منه فلا نفقده بسرعة ...

* * *

٧ ـ وربما يصبر الله علينا فى الضيقة ، لننال بركاتها :

إن استجاب لنا الله فى التو واللحظة ، ورفع عنا الضيقة ، فلا يمكن أن ننال البركات التى ننالها كلما طالت مدة الضيقة ، واحتملنا وصبرنا ونأخذ بسبب ذلك أكاليل ، بل نأخذ خبرات روحية أيضاً .

ونأخذ فضيلة الصبر والتسليم وانتظار الرب .

* * *

٨ ـ وقد يكون السبب فيما نظنه تأخيراً ، هو أن الله يعد لنا بديلاً أفضل مما نطلبه :

ذلك لأن الله يعطينا دائماً ما ينفعنا وما يناسبنا ، وليس مجرد الذى نطلبه .

إن الله لايستجيب حرفية صلواتنا ، بل روحها . هو يعرف احتياجاتنا أكثر مما نعرف نحن . وهو يعرف الصالح لنا أكثر مما نعرف نحن . و يكفى أن نقول له إننا نريد ، وهو يختار بحكمته ما يراه نافعاً لنا ، وما يراه مطابقاً لمشيئته المقدسة المملوءة حكمة .

* * *

٩ - ربما شعورنا أن الله قد تأخر علينا ، هو تعبير عن عدم أجادتنا لعبارة «لتكن مشيئتك» .

إننا نقولها فى الصلاة . ولكننا غالباً لا ندخل إلى عمقها ، ولا ندركها ولا نعنيها . فإن تأخرت استجابة ما نطلب ، علينا أن نقول له : نحن يارب لا نفرض عليك مشيئتنا ، إنما نصارحك بما فى داخلنا من رغبات ومن طلبات . فإن وجدتها نافعة ، حققها فى الوقت الذى تختاره . وإلا فلتكن مشيئتك ، بكل رضى قلوبنا ...

إنه تدريب على حياة التسليم ، المبنية على الثقة بتدابير الله .

المهم أن ننتظر الرب ، بقلب مملوء بالسلام والاطمئنان ، شاعرين أن قضيتنا قد استقرت فى يد الله الأمينة وفى قلب الله الحنون . وهذا يكفى ...

الفصل الحادى عشر

شَجِّعُوا صِغَارَ النُّفُوسِ
اسْنِدُوا الضُّعَفَاءَ

(١تس ٥: ١٤)

عن محاضرتين القيتا بالكاتدرائية يومى الجمعة ٢٢/١٠/٧٦ ، ٣٠/١٠/١٩٨٠م .

الله العطوف

حقاً إن الله يحب أن يكون الإنسان قوياً فى شخصيته، قوياً فى حياته الروحية، قوياً فى احتماله، فى خدمته، فى فهمه، فى كل شىء.

ولكنه مع ذلك هو إله الضعفاء أيضاً.

يسندهم فى ضعفهم، يشجعهم ويقويهم، ولا يتركهم... بل عن مثل هؤلاء، قال السيد المسيح «روح السيد الرب علىّ. لأن الرب مسحنى لأ بشر المساكين، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب، لأنادى للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالاطلاق... لأعزى كل النائحين... لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد،ودهن فرح عوضاً عن النوح، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة» (أش ٦١: ١- ٣).

* * *

نعم إنه يسند هؤلاء اليائسين والمنكسرين والنائحين. ونقول عنه:

معين من ليس له معين، ورجاء من ليس له رجاء.

عزاء صغيرى النفوس، ميناء الذين فى العاصف. أى أنه ميناء السلامة، للذين فى سفن تتقاذفها الأمواج والعواصف... كما حدث للتلاميذ، فى يوم ريح شديدة، وكانت سفينتهم فى وسط البحر معذبة من الأمواج. فأبصروه قادماً إليهم ماشياً على الماء. وقال لهم «أنا هو، لا تخافوا»... وسكنت الريح (مت ١٤: ٢٤- ٣٢).

* * *

حقاً إنه معين من ليس له معين، وكمثال ذلك:

شفاؤه مريض بيت حسدا ، الذى ليس له إنسان يلقيه فى البركة ...

حينما تقف وحيداً ، وليس لك إنسان يهتم بك ، ستجد الله حتماً إلى جوارك... حينما تهرب من عيسو الجبار الذى يريد أن يقتلك ، حينئذ سترى سلماً بين السماء والأرض ، وصوت الله يطمئنك قائلاً « ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب .. » (تك ٢٨ : ١٥) . حينما يطاردك فرعون حتى إلى البحر ، وتصغر نفسك ، سيشق لك الله فى البحر طريقاً ...

لا تصغر نفسك أمام الشدائد . وإن صغرت ، اسمع قول الرسول :

« شجعوا صغار النفوس ، اسندوا الضعفاء » (١تس ٥ : ١٤) .

* * *

كذلك أنت ، إن رأيت إنساناً حائراً يائساً منهاراً ، لا تستصغره . وإن رأيته ساقطاً ، لا تحتقره ، بل اسنده ، وقل له كلمة ترفع معنوياته . اعطه كلمة رجاء . افتح له طاقة من نور تضىء له الطريق .

يا أخى إن كنت على قمة الجبل ، فلا تحتقر الذين على السفح أو فى الوادى ، أو حتى الذين فى المستنقع ... وإن أعطاك الرب نعمة ووصلت ، فلا تنظر إلى الناس من فوق ، ولا تحتقر الذين لم يصلوا . أو حتى اليائسين وصغار النفوس . بل تذكر قول الرب :

« انظروا . لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار » (مت ١٨ : ١٠) .

مهما وصلت إليه حالتهم ، فالله قادر أن يقيمهم ، كما أقام من قبل أوغسطينوس وبيلاجية وموسى الأسود.... حتى إن كان شجرة غير مثمرة ، وعلى وشك أن تقطع ، فإن الكرام الحنون يشاء أن يتركها هذه السنة أيضاً ، و ينقب حولها و يضع زبلاً ، فربما تأتى بثمر فيما بعد (لو١٣ : ٦ـ ٩) ... إنه إلهنا الطيب الذى قيل عنه :

قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لا يطفىء (مت ١٢ : ٢٠) .

ربما يعصب القصبة المرضوضة فتستقيم ، و ينفخ فى الفتيلة المدخنة فتشتعل...

إن الله يعطى فرصة لكل أحد . لأنه لا يشاء موت الخاطىء ، بل أن يرجع ويحيا (حز١٨ : ٢٣، ٣٢) ... وطالما الإنسان على قيد الحياة ، لا تزال أمامه فرصة للتوبة ، ولا يفقد الرجاء . فاللص اليمين آمن وعاد إلى الله ، وهو فى الساعات الأخيرة من حياته على الأرض ... لقد كان هو أيضاً قصبة مرضوضة .

* * *

عبارة جميلة معزية قالها ربنا يسوع المسيح وهى :

ما جئت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم (يو ١٢ : ٤٧) .

ليست فى فمى كلمة دينونة ، بل كلمة حب ، كلمة خلاص ومغفرة ... بل الدينونة التى عليكم أنتم ، سأحملها أنا بدلاً منكم ، وأمحوها عنكم بدمى ... حقاً يارب فمك حلاوة وكله مشتهيات (نش ٥ : ١٦) . تقول ما جئت لأدين ، بينما الدينونة كلها للابن ! (يو٥ : ٢٢) .

* * *

أمثلة

إن البشرية الضعيفة المسكينة الساقطة ، سندها الله بالأنبياء .

حتى عندما رفضوه . أتى ليجتذبهم إليه ... عندما تركوه ، وحفروا لهم آباراً مشققة لا تضبط ماء (أر٢ : ١٣) ، لم يتركهم بل حدثهم عن ينبوع المياه الحية ... ولما عبدوا العجل الذهبى ، وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر (خر٣٢ : ٤) ... لم يفنهم الرب ، بل رجع عن حمو غضبه ، وقبل شفاعة موسى النبى فيهم ... ولا يزال الرب يصبر ويحتمل ، و يقيم الساقطين ويحل المربوطين (مز١٤٥) .

* * *

فى صغر نفسك قد تيأس من خلاصك !
ولكن الله لا ييأس مطلقاً من اجتذابك إليه .

لقد جاء يطلب ويخلص ما قد هلك (لو ١٩ : ١٠) . سعى وراء المشارين

والخطاة وجلس على موائدهم. وقال «ما جئت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى» (لو٥: ٣١، ٣٢) .... مدح العشار الذى لم يجرؤ أن يرفع عينيه إلى فوق، وقد وقف من بعيد... وفضله على الفريسى، وخرج من عنده مبرراً (لو١٨: ١٣، ١٤).

* * *

حتى المرأة الخاطئة المضبوطة فى ذات الفعل.

المرأة الغارقة فى الخزى وصغر النفس، التى اجتمع حولها الكتبة والفريسيون ليرجموها... أنقذها الرب من هؤلاء، وقال لها «ولا أنا أدينك. اذهبى ولا تخطئى أيضاً» (يو٨: ٣- ١١).

وكذلك الخاطئة التى بللت قدميه بدموعها، ومسحتهما بشعر رأسها، رفع معنوياتها، وفضلها على الفريسى، وقال إن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها (لو٧: ٣٧- ٤٧).

* * *

من أجل معرفة داود النبى، بحنان الله الذى يشجع صغار النفوس، قال له فى توبته:

اغسلنى، فأبيض أكثر من الثلج (مز ٥٠).

وعبارة «أكثر من الثلج» توضح مدى غنى حنان الله على الخطاة، حتى قال عنه المرتل فى مزموره الجميل المعزى «باركى يا نفسى الرب، ولا تنسى كل حسناته..» قال: «كما يتراءف الاب على البنين، يتراءف الرب على خائفيه» «لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا. لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض، قويت رحمته على خائفيه. كبعد المشرق عن المغرب، ابعد عنا معاصينا... لأنه يعرف جبلتنا يذكر أننا تراب نحن» (مز١٠٣: ١٠- ١٤).

* * *

إن الله ليس فقط يغفر لنا خطايانا ، بل يقول :

« ولا أذكر خطيتهم بعد » (أر ٣١ : ٣٤) .

يقول عن الخاطيء التائب « كل معاصيه التى فعلها لا تذكر عليه » (حز١٨ : ٢٢) « كل خطيته التى أخطأ بها لا تذكر عليه » (حز٣٣ : ١٦) . ويقول بولس الرسول عن عمل الفداء « إن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم » (٢كو٥ : ١٩) . ويقول المرتل فى المزمور « طوبى للذى غفر إثمه وسترت خطيته . طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية » (مز٣٢ : ١ ، ٢) . ويكرر القديس بولس الرسول هذه الآية فى رسالته إلى رومية (رو٤ : ٨) .

فالذى يصيبه صغر نفس بسبب خطاياه ، فليتذكر أنها لا تحسب عليه فى توبته .

الله يمحوها فى التوبة ، ولا يعود يذكرها « إن كانت خطاياكم كالقرمز ، تبيض كالثلج » (اش ١ : ١٨) . بل أكثر من الثلج (مز٥٠) .

* * *

ولنأخذ مثالاً لبطرس الرسول الذى انكر المسيح :

بل أنه أخذ « يلعن ويحلف أنى لا أعرف هذا الرجل الذى تقولون عنه » (مر١٤ : ١٧) (مت ٢٦ : ٧٤) . ونسى قوله للسيد « وإن شك فيك الجميع ، فأنا لا أشك » « ولو أضطررت أن أموت معك لا أنكرك » (مر١٤ : ٢٩ ، ٣١) (مت ٢٦ : ٣٣ ، ٣٥)... وهوذا الآن وقد أنكره ثلاث مرات... لذلك وقع فى صغر النفس ، وبكى بكاءً مراً (مت ٢٦ : ٧٥) .

ولكن الرب لم يترك تلميذه بطرس لصغر النفس ، بل شجعه بأساليب كثيرة .

فبعد القيامة قال للمريمات « اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس أنه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه » (مر١٦ : ٧) . ولم يدمج بطرس وسط التلاميذ ، لأنه كان محتاجاً إلى اهتمام خاص ليرفع نفسيته بعد إنكاره... ولما ظهر السيد المسيح لسبعة من تلاميذه عند

بحر طبرية، قال لبطرس «أتحبني أكثر من هؤلاء؟ ارع غنمي... ارع خرافي..» (يو٢١: ١٥- ١٧). ليظهر له أنه لم يسقط من درجته الرسولية بإنكاره له... بل إن بولس الرسول يقول عن ظهورات الرب بعد قيامته، أنه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر (١كو١٥: ٥).

* * *

وبالمثل فعل الرب مع توما فى شكه.

كانت نفسه أصغر من أن تؤمن دون أن ترى ... كل التلاميذ آمنوا، ما عداه. فلم يتركه الرب إلى شكه وصغر نفسه، بل ظهر له وأراه جروحه. وقال له «هات يدك وضعها فى جنبى. ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً» فآمن توما وقال «ربى وإلهى» (يو٢٠: ٢٧، ٢٨).

* * *

لننظر معاملة الرب لموسى الثقيل الفم واللسان (خر ٤ : ١٠).

كان موسى يعرف عن نفسه هذا الضعف، وأنه لا يصلح بسببه. وقد قال للرب «لست أنا صاحب كلام، منذ أمس ولا أول من أمس، ولا من حين كلمت عبدك» (خر٤: ١٠). وقال له أيضاً «ها أنا أغلف الشفتين، فكيف يسمع لى فرعون» (خر٦: ٣٠). ولكن الله شجعه، ولم يتركه لصغر النفس.

بل إن هذا الأغلف الشفتين صار كليم الرب.

وقال له «اذهب الآن، وأنا أكون مع فمك، وأعلمك ما تتكلم به «. وها هو هارون أخوك «تكلمه وتضع الكلمات فى فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه. وأعلمكما ماذا تصنعان... هو يكون لك فماً، وأنت تكون له إلهاً» (خر٤: ١٢- ١٦).

* * *

كذلك شجع الله صغار السن، والخائفين من المسئولية:

لما قال له أرميا «إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» قال له الرب «لا تقل إنى ولد ... لا تخف من وجوههم، لأنى أنا معك لأنقذك يقول الرب» ومد الرب يده ولمس فم ارميا وقال له «ها قد جعلت كلامي فى فمك. انظر. قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك، لتقلع وتهدم، وتهلك وتنقض، وتبنى وتغرس» (أر ١ : ٦-١٠).

ثم شجعه بالأكثر وقال له «هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة محصنة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض ... فيحاربونك ولا يقدرون عليك، لأنى أنا معك يقول الرب لانقذك» (أر ١ : ١٨، ١٩).

وبنفس الوضع شجع الرب يشوع بعد موت موسى.

لم يكن سهلاً على يشوع أن يملأ المكان الكبير الذى كان يشغله موسى النبى العظيم، لذلك كان صغيراً فى عينى نفسه. ولكن الرب شجعه قائلاً:

«لا يقف إنسان فى وجهك كل أيامك. كما كنت مع موسى، أكون معك. لا أهملك ولا أتركك. تشدد وتشجع ... أما أمرتك. تشدد وتشجع. لا ترهب ولا ترتعب، لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب» (يش ١ : ٥-٩)..

* * *

قصة عن القديس الأنبا ايسيذيروس قس القلالى:

قيل عنه فى البستان: إن أى أخ كان يفشل الآباء فى اصلاحه ويطردونه، كان الأنبا ايسيذيروس يأخذه، ويطيل أناته عليه حتى يخلص. ولذلك فإن الأنبا موسى، حينما جاء إلى الدير، وكان منظره مخيفاً، حولوه إلى القديس ايسيذيروس. كان الأنبا موسى فى أول توبته، حمله ثقيل. وفى إحدى الليالى جاء إلى أبيه الأنبا ايسيذيروس احدى عشرة مرة. فلما نصحه بالذهاب إلى قلايته، أجاب: «لا أستطيع يا معلم» لأن الأفكار كانت تضغط عليه بشدة.

وأطال القديس أناته عليه، حتى تحول موسى الأسود إلى قديس.

نصائح

حاولوا دائماً أن ترفعوا من نفسية الناس ومعنوياتهم «اسندوا الضعفاء» إن رأيتم إنساناً يبكته الكثيرون، وينتقدونه، ويتهكمون عليه، وهو ذليل أمامهم: حاولوا أن تحتضنوه، وتقولوا فيه إن أمكنكم كلمة طيبة... تأكدوا أنه لن ينسى هذا الموقف النبيل منكم كل أيام حياته...

إن هذه رسالة القلوب الكبيرة، المحبة الحنونة، نحو صغار النفوس.

* * *

إن وجدت إنساناً مربوطاً بالخطية، فلا تعيره، بل فكه من رباطاته.

لا تكن مثل رجل رأى شاباً يصارع الغرق فى البحر. فظل يوبخه ويقول له: يا ابنى، مادمت لا تتقن العوم، فلماذا تنزل إلى البحر؟! فقال له الشاب: انقذنى يا سيدى من الغرق، ثم وبخنى بعد ذلك كما تشاء..!

هكذا أنت لا تعيّر أحداً بفشله. بل اعطه رجاء فى النجاح.

* * *

لا تقل: نصحت كثيراً ولا فائدة. بل أطل أناتك.

هوذا الرسول يقول «... اسندوا الضعفاء. تأنوا على الجميع» (١تس ٥: ١٤). إن الانتصار على خطية متأصلة، يحتاج إلى وقت وإلى صبر. فأصبر على الضعفاء، ريثما تفتقدهم النعمة وتنجيهم. واذكر أنك أيضاً تحت الآلام مثلهم. ضع أمامك قول الرسول «اذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم، والمذلين كأنكم أيضاً فى الجسد» (عب ١٣: ٣)...

* * *

تذكر ان الذين ثبطوا همة الشعب، لم يسمح لهم الله بدخول أرض الموعد.

أولئك الذين قالوا « لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا.... قد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق... فكنا فى أعيننا كالجراد » (عد١٣ : ٣١، ٣٣)... ولم يدخل الأرض سوى يشوع بن نون، وكالب بن يفنه، الذى قال فى رجاء « إننا نصعد ونمتلكها، لأننا قادرون عليها » (عد١٣ : ٣٠)...

* * *

ابحث عن النقط البيضاء فى حياة الإنسان الخاطىء أو الضعيف. اظهرها وامتدحها.

فهكذا فعل السيد المسيح مع المرأة السامرية، على الرغم من خطاياها. قال لها «حسناً قلت ليس لى زوج...» « هذا قلتِ بالصدق» (يو٤ : ١٧، ١٨). ووسط هذا المديح شجعها على الاعتراف. وربح نفسها للتوبة...

* * *

هناك إنسان تشجعه بكلمة طيبة، وآخر بقدوة صالحة، أو بذكر قصص وآيات، أو بتهوين الأمر عليه، أو بالتحدث عن نعمة الله وعملها... كذلك بالتغاضى عن كثير من أخطائه. لأن التوبيخ على كل خطأ قد يوقع فى اليأس.

الفصل الثانى عشر

الله
الذى يبدأ

من محاضرتين : الأولى فى ١٠/٦/٧٧ ، والثانية فى ٣/٢/٨٨

هناك أسلوبان فى حياة التوبة ، وفى العلاقة بين الله والإنسان :

١ - أن يأتى الإنسان إلى الله ، فيقبله الله ...

وذلك حسب وعد الله الصادق «من يقبل إليّ، لا أخرجه خارجاً» (يو٦ : ٣٧). وهذا هو الذى حدث للابن الضال: شعر بسوء حالته ، وقال أقوم واذهب إلى أبى. وفعلاً ذهب إليه ، فقبله أبوه فرحاً (لو١٥ : ١٧- ٢٤). ويطلب الله منا هذه التوبة وهذا الرجوع إليه ، فيقول «ارجعوا إليّ فأرجع إليكم» (ملا٣ : ٧).

٢ - الأسلوب الثاني : أن يبدأ الله العلاقة مع الإنسان .

هو الذى يذهب إليه . يسعى إلى خلاصه ، كما سعى وراء الخروف الضال حتى وجده وحمله على منكبيه فرحاً (لو١٥ : ٤، ٥)، وعن هذه المبادرة الإلهية ، يقول «أنا واقف على الباب أقرع. من يفتح لى، ادخل واتعشى معه ، وهو معى» (رؤ٣ : ٢٠).

ونود فى هذا الفصل ، أن نركز على بدء الله بالعمل معنا .

* * *

الإنسان قد لا يبدأ مع الله ، لأسباب عديدة :

*** ربما لأنه مغلوب من شهواته .**

تضغط عليه الشهوة من داخل قلبه، أو تحاربه بشدة من الخارج ، وتؤثر عليه وتأسره. بحيث أصبح يحب الخطية ، ولا يريد أن يبرأ منها (. يو٥ : ٦). فماذا يفعل مثل هذا الإنسان؟ هل ييأس ويفقد الرجاء؟ أم أن الله يبدأ العمل معه : يفتقده، ويقرع على بابه، ويجتذبه إليه؟ يقيناً إن هذا يحدث .

* * *

*** وربما الإنسان لا يبدأ ، لأنه مشغول عن الله بأمور كثيرة :**

وهذه المشغوليات لا تترك له وقتاً يتفرغ فيه لله... كما قال الرب لمرثا : «أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد» (لو١٠ : ٤١، ٤٢)... إنسان ليس لديه وقت لله... ليس لديه وقت للصلاة، ولا للقراءة والتأمل، ولا للخدمة... يحتاج إلى يد قوية، تنزعه من كل هذا...

* * *

★ وربما الإنسان لا يبدأ، بسبب الجهل. لا يعرف كيف يبدأ.

مثل أهل نينوى الذين قيل عنهم إنهم «لا يعرفون يمينهم من شمالهم» (يون ٤ : ١١). فبدأ الله معهم، وأرسل إليهم يونان النبى ليهديهم إليه. ومثل شاول الطرسوسى، الذى كان بجهل يضطهد الكنيسة (١تى ١ : ١٣). فكان لابد أن يظهر له المسيح ويجتذبه إليه. وأيضاً حينما تأثر بهذا الظهور وآمن، قال «ماذا تريد يارب أن أفعل؟» (أع ٩ : ٦).

عبارة «ماذا أفعل؟» قالها أيضاً الشاب الغنى (مت١٩ : ١٦). وقالها أيضاً اليهود فى يوم الخمسين (أع ٢ : ٣٧). ويقولها كثيرون...

* * *

★ وربما الإنسان لا يبدأ، بسبب الضعف.

فهو يقول «الشر الذى لست أريده إياه أفعل» «الإرادة حاضرة عندى، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد» «أرى ناموساً آخر فى أعضائى، يحارب ناموس ذهنى، ويسبينى إلى ناموس الخطية» «ويحى أنا الإنسان الشقى، من ينقذنى من جسد هذا الموت» (رو٧ : ١٨- ٢٤).

إذن لابد أن يبادر الله، وينقذ مثل هذا الإنسان...

* * *

وهنا لعل إنساناً يسأل :

إذا لم استطع أنا أن أبدأ، هل الله مستعد أن يبدأ معى؟

نعم يا أخى، هو مستعد أن يبدأ. بل هذا هو أسلوبه باستمرار. والكتاب

المقدس مزدحم بأمثلة كثيرة، فيها كان الله هو الذى يبدأ، منذ خلق الإنسان، وقبل خلقه أيضاً. ولنحاول أن نتأمل كل هذا معاً...

★ ★ ★

هناك حقيقة ثابتة، يسجلها الكتاب المقدس، وهى:

علاقة الله بالإنسان، الله هو الذى بدأها...

★ بدأت العلاقة بأن الله خلق الإنسان. وطبعاً لو لم يخلقه ما كانت هناك علاقة. وأضاف الله إلى هذا، أنه خلقه على صورته ومثاله كشبهه، ومنحه الروح الذى به ينشىء علاقة معه...

★ وإلى جوار الخلق: لما سقط الإنسان، الله هو الذى بدأ العلاقة.

لم يبدأ الإنسان بالسعى إلى الله ليعترف بخطيته و يطلب المغفرة والمصالحة، بل العكس لقد هرب من الله، وأختبأ وراء الشجر. فذهب الله إليه، وكلمه، وشجعه على الاعتراف. ووعده بالخلاص، حينما قال إن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تك ٣).

وكأن الله كان يقول لآدم: هل أنت خائف منى يا آدم؟ لا تخف، أنا سأصالحك. هل أنت مرتعب من الخطية ونتائجها؟ لا تخف. أنا سأغفر لك. سأعد لك طريق الخلاص...

★ ولاشك أن الله هو الذى بدأ بإعداد هذا الخلاص العجيب.

هو الذى علّم البشرية عقيدة الفداء والكفارة، وموت نفس بريئة طاهرة عن نفس خاطئة مستحقة للموت. وهو الذى وضع للإنسان شرائع الذبائح والمحرقات، وقواعد النجاسة والتطهير. وهو الذى أعطانا التوبة للحياة (أع ١١: ١٨).

★ والله هو الذى بدأ بالوحى، وأرسل إلينا الأنبياء.

كل ذلك لتعليمنا وارشادنا، وتوصيل كلمته إلينا. وهو الذى أعطى هؤلاء الرسل «خدمة المصالحة» (٢كو٥: ١٨). حتى أن القديس بولس الرسول قال «نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا. نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله» (٢كو٥: ٢٠). إذن الله هو الذى يبدأ عملية المصالحة، و يرسل رسله لتمهيدها.

* **هو الذى تجسد، ونزل إلينا، ليفدينا ويخلصنا.**

وما كنا نحن نعرف شيئاً عن التجسد والفداء، وما كنا نطلبه. ولكن الله أظهر محبته لنا، بهذا الخلاص العجيب «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل إبنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦).

* * *

وفى علاقته بالإنسان، الله هو الذى بدأ بالدعوة.

سواء بالنسبة إلى النبوة، أو الرسولية، أو الكهنوت ...

الله هو الذى دعا أبانا نوح، وكلّفه بصنع الفلك، والدخول فيه، ليخلص هو وأسرته، ولكى يستبقى الله حياة على الأرض (تك٦- ٨). وكان الفلك فى الماء، رمزاً إلى المعمودية «الذى فيه خلص قليلون، أى ثمانى أنفس بالماء. الذى مثاله يخلصنا نحن الآن، أى المعمودية» (١بط٣: ٢٠، ٢١).

وكما دعا الله نوحاً، دعا أبانا ابراهيم، ليكون له شعباً يسير فى طريق الخلاص.

ابرام لم يبدأ هذه العلاقة، إنما بدأها الله معه. دعاه ليتبعه فى الأرض التى يريه إياها، وباركه. وقال له «تتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تك١٢: ١- ٣). وأيضاً «تتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض» (تك٢٢: ١٨).

ونفس الوعد أعطاه الرب لأبينا يعقوب، فقال له «ويتبارك فيه وفى نسلك جميع قبائل الأرض» (تك٢٨: ١٤).

الله هو الذى بدأ، فمنح البركة.

منح البركة منذ البدء لأبوينا الأولين آدم وحواء (تك١: ٢٨). وكرر نفس البركة لأبينا نوح وبنيه (تك٩: ١). ومنح البركة لأبينا ابراهيم (تك١٢: ١٢) (تك٢٢: ١٧، ١٨). ولأبينا اسحق (تك٢٦: ٢٤)، ولأبينا يعقوب (تك٢٨: ١٤).

وكانت أعظم بركة، أن ينتهى من نسلهم المسيح، وبه تتبارك جميع قبائل الأرض، بالخلاص الذى يقدمه للعالم.

فالخلاص هو الهبة العظمى ، الذى بدأ الله بها ، وأكملها من أجل محبته للإنسان ، لأنه :

« يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤) .

★ ★ ★

ومن أجل هذا الخلاص دعا الأنبياء والرسل :

★ دعا موسى النبى ، حينما كلمه من العليقة (خر ٣ : ٤) ، وذلك لكى يرسله لخلاص الشعب ، وما كان موسى مفكراً وقتذاك فى هذه الدعوة ، ولا فى السعى لتخليص الشعب ، بل اعتذر عن ذلك أكثر من مرة (خر ٤ : ١٠ ، ١٣) .

★ ودعا الله أناساً من بطون أمهاتهم .

كما قال لأرمياء الطفل « قبلما صورتك فى البطن عرفتك ، وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (أر ١ : ٥) . وكذلك يوحنا المعمدان ، الذى قال عنه الملاك « ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) . ومثل أبينا يعقوب (رو ٩ : ١ - ١٣) (تك ٢٥ : ٢٣) .

ومعلمنا القديس بولس الرسول قال عن دعوته « لما سرّ الله الذى أفرزنى من بطن أمى ، ودعانى بنعمته ... » (غل ١ : ١٥) . ثم لما حل الوقت المناسب ، كان الله أيضاً هو الذى بدأ ، فقابله فى طريق دمشق ، وظهر له بنور مبهر ودعاه (أع ٩) .

★ ★ ★

★ وجميع رسل السيد المسيح ، هو الذى دعاهم ، بل قال لهم :

« لستم أنتم اخترتمونى ، بل أنا أخترتكم ... » (يو ١٥ : ١٦) .

وأكمل قائلاً « وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر و يدوم ثمركم » . وكما اختار الرسل الاثنى عشر (مت ١٠ : ١) ، كذلك اختار السبعين أيضاً (لو ١٠ : ١) .

ما فكر بطرس واندراوس أن يتبعا المسيح ، وهما مشغولان بشباكهما . وما فكر متى أن يكون أحد تلاميذ المسيح ، وهو موظف فى مكان الجباية ، وهكذا بالنسبة إلى الباقين ... ولكن الرب هو الذى بدأ بتكوين علاقة ودعا كل هؤلاء ...

« الذين سبق فعرفهم ، سبق فعينهم ... وهؤلاء دعاهم أيضاً » (رو ٨ : ٢٩ ، ٣٠) .

هو الذى يناديك من حيث لا تعلم ، وحيث لا تتوقع ، و يقول لك « هلم ورائى » . وهو الذى يقودك فى الطريق ، ويمنحك القوة ... المهم أن يكون قلبك مستعداً .

★ ★ ★

إن ظهورات الرب لتلاميذه بعد القيامة، تعطينا فكرة جميلة عن الله الذى يبدأ ...

★ فى تلك الفترة ، كان السيد هو الذى يذهب إلى تلاميذه ، وما كانوا هم الذين يأتون إليه . ولعل من الأشياء الجميلة التى تستدعى التأمل : أنه ظهر لهم وهم جلوس فى العلية ، والأبواب مغلقة (يو ٢٠ : ١٩) .

هل جربت وقتاً ، كانت فيه أبوابك مغلقة ، ثم اخترقها المسيح ليتحدث إليك ؟!

معقول ومقبول ، أن يتحدث المسيح إلينا ، حينما تكون أبوابنا مفتوحة له (رؤ ٣ : ٢٠) . أما أن يدخل و يظهر و يتحدث إلينا ، والأبواب مغلقة ، فهذا هو الأمر العجيب الذى يناسب محبته .

على أنه بالنسبة إلى الرسل ، كانت أبوابهم مغلقة بسبب الخوف ، لا بسبب الرفض ...

★ وظهر السيد لتلاميذه أيضاً ، وهم منهمكون فى أمور مادية :

الأصحاح الأخير من إنجيل يوحنا ، يشرح لنا كيف ظهر السيد المسيح لسبعة من تلاميذه كانوا يصيدون السمك ، ومنهم بطرس و يوحنا ... فقد حدث أنهم رجعوا إلى صيد السمك (يو ٢١ : ٣) . ومع ذلك ظهر لهم الرب أثناء الصيد . وفى ذلك يقول القديس أغسطينوس «إن المسيح ظهر لبطرس ، ليس وهو منهمك فى صيد النفوس . إنما ظهر له المسيح ، وهو منهمك فى صيد السمك ...» .

لعل فى ذلك تعزية لنا ، أن الرب مستعد أن يظهر لنا ، ليس فقط ونحن فى عمل روحى ، بل حتى ونحن فى العمل المادى أيضاً ... هو الذى يبدأ : يظهر، و يبدأ الحديث ، لصالحنا .

★ وظهر أيضاً لتلميذين ، وهما لا يعرفانه ...

إنهما تلميذا عمواس . ظهر لهما وهما لا يعرفانه . بل لما سألهما عن موضوع حديثهما ، أجاباه « هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ، ولم تعلم الأمور التى حدثت فى تلك الأيام » ...

وبدأ المسيح من موسى ومن جميع الأنبياء ، يفسر لهما الأمور المختصة به فى جميع الكتب (لو٢٤ : ١٨ - ٢٧) ... وأخيراً انفتحت أعينهما وعرفاه (لو٢٤ : ٣١) .

إن كنت بعد لم تعرفه ، هو مستعد أن يظهر لك ، و يكشف لك ذاته ، و يفسر لك الأمور المختصة به ... ويجعل قلبك ملتهباً فيك ، وهو يوضح لك الكتب (لو٢٤ : ٣٣) . هو الذى يبدأ ...

* * *

حتى فى التوبة ، غالباً ما يبدأ الله عمله فينا . وكل ما يطلبه أن نتجاوب معه .

هو الذى بدأ فأعطانا الضمير، وأعطانا التمييز. وأيضاً روحه القدوس يبكتنا على خطية (يو١٦ : ٨) ... كل ذلك لكى يدفعنا إلى التوبة .

وإن كنا متراخين ، يرسل لنا كلمة تحثنا ، عظة مؤثرة ، كتاباً نافعاً .

وتتابعنا زيارات النعمة ، تدفعنا إلى التوبة .

وربما يسمح الله لنا بمرض أو ألم ، ليجعلنا نفيق من غفلتنا ، أو يسمح بحادث معين يكون له تأثيره . أو يتكلم فى قلوبنا خلال تأثرنا بوفاة أحد أحبائنا . وهكذا إلى سائر الوسائل التى نشعر فيها أن الله ينخس قلوبنا لنتوب . إنما المهم أن نتجاوب ، ولا نرفس مناخس (أع ٩ : ٥) .

أترانا نستطيع أن نصل إلى التوبة ، بمجرد مجهودنا الخاص ؟ كلا ، فالرب يقول :

بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً (يو ١٥ : ٥) .

لنا رجاء إذن أنه يعمل فينا لأجل خلاصنا . حتى إن كنا لا نريد ، نرجو أن يمنحنا هذه الإرادة . ألم يقل القديس بولس الرسول « ..لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة » (فى ٢ : ١٣) لذلك «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » ...

* * *

داود النبى أخطأ ، وما كان يشعر بخطورة خطيئته :

وظلت خطية تقودة إلى أخرى ، وهو يتمادى ولا يشعر بما هو فيه ، إلى أن أرسل الله إليه ناثان النبى ، فضرب له مثلاً شعر به بعمق جرمه ... ومن هنا بدأت معه قصة التوبة والدموع والندم ، والتى سجلها فى كثير من مزاميره . وكان الله هو البادىء ليقوده إلى انسحاق النفس ...

مثال آخر هو لوط فى أرض سادوم .

لقد أختار لوط الأرض المعشبة ، مع بيئتها الخاطئة المعثرة ، وسكن فى سادوم وتمادى فزوّج بناته من أهلها . و يقول القديس بطرس فى رسالته الثانية عن عمل الرب معه « وأنقذ لوطاً البار مغلوباً من سيرة الأردياء فى الدعارة . إذ كان البار بالنظر والسمع -،هو ساكن بينهم- يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة » (٢بط ٢ : ٧، ٨) .

أوقع الله أهل سادوم فى السبى ، ولم يأخذ لوط درساً . وبعد أن أنقذه ابرام، عاد مرة أخرى إلى سادوم . ولما أراد الله حرق المدينة أرسل ملاكين يعجلان لوطاً للخروج منها « ولما توانى أمسك الملاكان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه ، لشفقة الرب عليه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة .. » (تك ١٩ : ١٦) .

ثق أن الله مستعد أن يعمل معك كما عمل مع لوط ، ويخرجك من أرض الخطية فعليك أن تستسلم لقيادته ، ولا تنظر إلى الوراء كما فعلت امرأة لوط ...

* * *

صلّ إذن وقل : اعمل يارب معى . ولا تنتظر حتى أبدأ أنا ، فربما لا أبدأ !

ابدأ معى كما فعلت مع هؤلاء وغيرهم . خذنى من سادوم اخرجنى منها ، بواسطة ملائكتك القديسين . وليظل يدوى فى أذنى صوتك الحنون « اهرب لحياتك . ولا تقف فى كل الدائرة .... لئلا تهلك » (تك ١٩ : ١٧) .

أما نحن فليتنا نغنى مع المرتل «نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين . الفخ أنكسر ونحن نجونا . عوننا من عند الرب » (مز ١٢٣) .

أنت يارب الذى كسرت الفخ . إذ لا يستطيع عصفور أن يكسر فخ الصيادين ...

هل كانت مريم القبطية تفكر في التوبة ؟! كلا ، بل كانت ماضية لارتكاب مزيد من الخطايا . ثم تدخل الله في حياتها ، وحدثت معجزة منه أيقظتها ودفعتها إلى التوبة . واستمر عمل الله معها حتى تحولت إلى ناسكة سائحة ...

وبالمثل تدخل الله في حياة أوغسطينوس وبيلاجية وسارة ، وحوّل دفة الحياة إلى طريقه هو. وكان هو البادىء ...

* * *

حتى في الخدمة ، هو الذى يدعو ويرسل ، ويمنح قوة من روحه القدوس لنعمل بها ، بل قد يعد لنا كل شىء ويقول لنا :

« أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه » (يو ٤ : ٣٨).

« آخرون تعبوا ، وأنتم دخلتم على تعبهم » ... كل شىء يعدّه لنا . حتى الكلمة : هو يمنحنا كلمة عند افتتاح فمنا » (أف ٦ : ١٩) . وهو الذى يعطى التأثير للسامعين لكى يعملوا بما سمعوه ... فإن كان أحد يخاف الخدمة ، فليذكر دائماً عمل الله فيها ...

* * *

حتى الأبدية ، الله هو الذى يبدأ فيقول عن نصيبنا فيها :

« أنا ماض لأعد لكم مكاناً ... » (يو ١٤ : ٢) .

مباركة هى محبتك يارب . ليتك تعد لنا هذا المكان . حتى تأتى وتأخذنا إليك . وحيثما تكون أنت ، نكون نحن أيضاً (يو١٤ : ٣) .

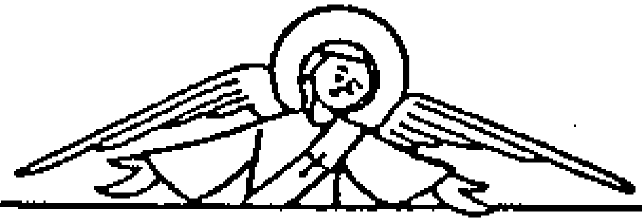

الفصل الثالث عشر

نهاية أمر خير من بدايته

فى قصة القيامة نرى كيف أن تعب التلاميذ وخوفهم فى يوم الجلجثة والصلب، قد انتهى بفرحهم واطمئنانهم فى يوم القيامة .

ولعل هذا يذكرنا بآية هامة وردت فى سفر الجامعة :

« نهاية أمر خير من بدايته » (جا ٧ : ٨) .

طبعاً على شرط أن تكون نهاية طيبة ...

والنهاية الطيبة تجعل الإنسان ينسى كل تعبه ، ولا يذكر سوى هذه النهاية المفرحة التى تعزيه . تماماً كما أن قيامة السيد المسيح محت من مشاعر التلاميذ كل ما قاسوه فى يوم الصلب .

* * *

وهكذا نرى الناس دائماً يبحثون عن النهاية ، ويهتمون بها .

وذلك فى كل نواحى الحياة : تروى قصة ، أو تشاهد رواية ، وكل ما يهمك هو كيف انتهت القصة أو الرواية ... قضية ، أو خلاف بين زوجين ، أو حادث فى الطريق ... المهم كيف انتهى ؟ ... وقد يشرح لك الراوى تفاصيل ما حدث ، ولكنك تسأل فى لهفة : والنهاية ؟ ... نفس الوضع فى أية مباراة ، أو أية منافسة ، أو أية حرب بين دولتين، أو أى حوار أو تفاوض ... السؤال المهم هو: وماذا كانت النهاية أو النتيجة ...

* * *

حتى فى الحياة الروحية : الأهمية كلها هى فى النهاية ... ولذلك فإن القديس بولس الرسول يقول عن رجال الله :

انظروا إلى نهاية سيرتهم ، فتمثلوا بإيمانهم (عب ١٣ : ٧) .

إنه نفس الوضع الذى تذكره الكنيسة فى أعياد القديسين ... قليل هم الذين

تعيد الكنيسة لميلادهم : كالعذراء (أول بشنس) و والمعمدان (٣٠ بؤونة) والأنبا شنوده رئيس المتوحدين (٧ بشنس) . **ولكن كل أعياد القديسين تقريباً هى فى أيام نياحتهم أو أيام استشهادهم ، فى نهاية سيرتهم ، حيث اكملوا جهادهم بسلام .**

لأن هناك أشخاصاً بدأوا بداية طيبة، وانتهوا بنهاية سيئة .

من أمثلة أولئك ديماس تلميذ بولس الرسول ، الذى كان يذكره ضمن أعمدة الكنيسة مع القديسين مرقس ولوقا واسترخس . ولكنه قال عنه أخيراً « ديماس تركنى لأنه أحب العالم الحاضر» (٢تى ٤ : ١٠) . وقال أيضاً عن أمثال ديماس هذا « ... كثيرين ممن كنت اذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك ... ومجدهم فى خزيهم » (فى ٣ : ١٨ ، ١٩) .

عجيب عن هؤلاء ، أن نهايتهم الهلاك ! إذن المهم هو النهاية .

لأن كثيرين بدأوا بالروح ، وكملوا بالجسد ، مثل أهل غلاطية ...

وسليمان الحكيم ، بدأ بحكمة فائقة ، وانتهى بالأصنام (١مل ١١) ... نرجو أن تكون له نهاية أخرى فاضلة ، وهى زهده الذى ورد فى سفر الجامعة دليلاً على توبته . وهنا نقول « نهاية أمر خير من بدايته » أو هكذا قال الوحى الإلهى على فم سليمان ...

★ ★ ★

قصص نهايات طيبة

ويحكى لنا الكتاب قصص نهايات طيبة ، نذكر من بينها :

١ - قصة **يوسف الصديق** ، التى بدأت بخيانة اخوته وقسوتهم ، وبيعهم له كعبد ، واشتغاله خادماً فى بيت فوطيفار، ثم تلفيق تهمة له ، والقائه فى السجن . ولكن المهم هو النهاية ، التى صار فيها أباً لفرعون (تك ٤٥ : ٨) والمتسلط على كل أرض مصر، وفرحته بلقاء أبيه واخوته الذين بكوا بين يديه طالبين المغفرة . حقاً إن نهاية أمر خير من بدايته :

نفى الوضع نقوله عن **دانيال والثلاثة فتية :**

دانيال القى فى جب الأسود . ولكن انتهى الأمر بأن الله أرسل ملاكه فسد أفواه الأسود (دا ٦ : ٢٢) . والثلاثة فتية ألقوهم فى أتون النار، ولكن انتهى الأمر بأن رأوهم وسط النار بلا أذى ، وقد سار معهم رابع شبيه بابن الآلهة (دا ٣ : ٥) .

وانتهى الأمر فى القصتين بعبادة الإله الحق ، وتمجيده فى كل المملكة أكثر من كل آلهة الأمم . حقاً إن نهاية أمر خير من بدايته .

* * *

ونفس الكلام نقوله عن **أيوب الصديق** الذى تعرض لتجربة قد تفوق احتمال البشر، وفقد أولاده وماله وصحته وكرامته.. وبلغت التجربة ذروتها . ولكن ماذا كانت النهاية ؟ يقول الكتاب « ورد الرب سبى أيوب . وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفاً ... وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه ... وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة . ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال ... » (أى ٤٢ : ١٠ - ١٧) ... حقاً إن نهاية أمر خير من بدايته .

* * *

ويعوزنى الوقت إن تحدثت عن النهايات الطيبة التى ذكرها الكتاب فى **تقديم اسحق محرقة**، وفى بناء **نحميا** لأسوار أورشليم بعد أن تهدمت واحرقت أسوار المدينة بالنار (نح ١) ، وكيف نصره الله أخيراً . كذلك قصة **المسبيين فى بابل** ، وكيف عادوا أخيراً ، بعد أن بكوا على أنهار بابل ، وعلقوا قيثاراتهم على الصفصاف ، وقالوا كيف نسبح الرب فى أرض غريبة (مز١٣٦) كلها نهايات طيبة ، نقول فيها « نهاية أمر خير من بدايته » .

* * *

نفس الوضع نقوله أيضاً فى كل قصص التائبين .

كلما نذكر حياة القديس أوغسطينوس ، وكيف بدأ حياة مستهترة ماجنة ، وكذلك القديس موسى الأسود ، وكيف بدأ قاتلاً قاسياً . والقديسة مريم القبطية ، والقديسة بيلاجية ، والقديسة سارة ، وكيف بدأن بحياة الزنا ، وانتهت حياتهن كقديسات عظيمات . ألسنا نقول عن حياة كل من هؤلاء التائبين والتائبات « نهاية أمر خير من بدايته » ...

إذن على كل واحد أن يبحث فى كل أمر: كيف تكون النهاية ؟

كل طريق تسلك فيه اسأل نفسك: ما نهاية هذا الطريق؟ وكذلك فكّر بنفس التفكير فى كل مشروع تبدؤه، وكل علاقة تكونها مع آخرين...

شاب مثلاً يحب فتاة ليست من دينه، عليه أن يفكر ماذا تكون نهاية هذه العلاقة؟ ما مصيرها وما مصيره؟! إنسان يختلف مع زوجته، ويحتدم الخلاف بينهما، بلا صلح، فليفكر أيضاً: ماذا ستكون نهاية هذا الخلاف، وإلى أين يقوده؟! شاب يبدأ التدخين، ولو بسيجارة واحدة مجاراة لزملائه، أو تجربة لطعم التدخين، عليه أن يفكر كثيراً: ما نهاية هذا الأمر.

وبنفس الطريقة فى كل ممارسة يمكن أن تتحول إلى عادة:

يسأل الإنسان نفسه: وما نهاية هذه الممارسة؟

بل كل لفظة يقولها، وكل غضب يشتعل فى داخله، فليسأل نفسه: وما النهاية؟ وماذا ستكون ردود الفعل وتصرفات الطرف الآخر؟ وإلى أين ينتهى به الغضب؟ وإلى أين تنتهى به الكلمة غير المنضبطة.

* * *

ذلك أيضاً فى كل مشكلة تحل بك، لا تيأس ولا تضطرب، بل قل لنفسك «نهاية أمر خير من بدايته».

قل لنفسك «مصيرها تنتهى»... هذا الموضوع لابد ستكون له نهاية. والنهاية فى يد الله. والله رؤوف وحنون. وبلا شك «نهاية الأمر ستكون خيراً من بدايته»...

وهذا اللون من التفكير، لا يكون فقط بالنسبة إلى مشاكلك أنت وحدك، وإنما أيضاً بالنسبة إلى كل مشكلة أو ضيقة تحل بمعارفك واصدقائك، بل وبالكنيسة نفسها...

* * *

لعل فكر الشهداء والمعترفين أيضاً كانت تدور به هذه الآية:

ما نهاية العذاب والموت؟ أليس هو الوصول إلى العالم الآخر؟ إلى الفردوس، إلى الأكاليل، إلى النعيم الأبدى فى نهاية الأمر كله. وهذا بلاشك أفضل جداً. إذن أين

شوكتك يا موت ؟ لقد زالت . ونهاية الأمر خير من بدايته ...

الأبدية بلاشك هى نهاية أفضل ...

العالم الآخر هو عالم أفضل ، حيث « ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على بال إنسان ، ما أعده الرب لمحبى إسمه القدوس » (١ كو ٢ : ٩) ... والجسد الروحانى السماوى الذى نعيش به بعد القيامة (١ كو ١٥ : ٤٤ - ٤٩) لاشك إنه أفضل من جسدنا المادى هذا ... وفى الأبدية عشرتنا مع الله وملائكته وقديسيه ، هى أفضل بما لا يقاس من عشرة هذا العالم الحاضر . ووجودنا فى عالم كله خير ، هو أفضل من وجودنا هنا ، حيث يوجد الخير والشر ، وحيث يعيش الزوان إلى جوار الحنطة ...

إذن الأبدية أفضل . فلماذا نخافها ؟ ولماذا لا نستعد لها .

★ ★ ★

ولعلنا فى الضيقات نذكر العتاب الذى قدمه أرمياء النبى لرب المجد قائلاً له « أبر أنت يارب من أن أخاصمك . ولكن اكلمك من جهة أحكامك : **لماذا تنجح طريق الأشرار؟** اطمئن كل الغادرين غدراً ؟! » (ار ١٢ : ١) .

ويجيب القديس أغسطينوس عن هذا السؤال بالنظر إلى النهاية : فيقول إن الأشرار كالدخان ، يرتفع دائماً إلى فوق . وفيما يرتفع وتتسع رقعته يتبدد . بينما النار تبقى اسفل ، ولكنها ثابتة وقوية .

لذلك فعلى الإنسان أن يهتم بالنهاية قبل كل شيء ، مهما كان بدء الأمر فيه تعب أو ضيق ...

نهاية طيبة مع بداية متعبة

الحياة الروحية ، تبدأ بالباب الضيق والطريق الكرب (متى ٧ : ١٣ ، ١٤) . ولكن هذا الضيق يؤدى إلى النعيم الأبدى بينما « واسع الباب ، ورحب الطريق ، الذى يؤدى إلى الهلاك » ... ولذلك ما أجمل قول المرتل :

« الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالابتهاج » (مز ١٢٥) .

الفصل الرابع عشر

تستطيعُ كلّ شئ ولاَيعْسُرعَليك أمر

(أى ٤٢ : ٢)

ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ١٩٧٦/٩/٢٤م.

إن أعمال الله عجيبة ، تدل على قوته الفائقة للعقل ... يقف أمامها الإنسان مندهلاً ، لا يملك إلا أن يردد عبارة قالها من قبل القديس أيوب الصديق :

« علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر » (أى ٤٢ : ٢) .

إننا نقرأ فى الكتاب المقدس عجباً ... من قصص المعونة ، وقصص التوبة وتغيير الحياة ، ومن قصص الإيمان أيضاً ... حتى ليقف الإنسان مندهلاً ، يقول من أعماقه : من كان يظن ، أن مثل هذا سيحدث ؟ ...

من كان يظن ؟

خذوا كمثال الطفل موسى ...

الطفل موسى

طفل صغير، وُلد فى عصر مظلم ، وكان محكوماً عليه بالموت قبل أن يولد ، وقد أخفاه أبواه خوفاً لمدة ثلاثة أشهر ، وإذ لم يستطيعا اخفاءه أكثر ، وضعاه فى سفط (سبت) ، وألقياه عند حافة النهر ، فى المياه ....

من كان يظن أن هذا الطفل المحكوم عليه بالموت ، والملقى فى الماء ، يصير نبى الله العظيم ، وكليم الله ... ؟!

يصير موسى النبى ، الذى نسبت الشريعة إلى اسمه ، فيقال شريعة موسى ، وناموس موسى ... بل يصير رجل المعجزات والآيات ، الذى شق البحر الأحمر بعصاه ، وضرب الصخرة فتفجرت ماء ، وأنزل من السماء المن والسلوى .. !

من كان يظن أن هذا المحكوم عليه بالموت من فرعون ، يعيش أربعين سنة فى قصر فرعون ، كأحد الأمراء ، ويدعى ابن ابنة فرعون ... ويصبح فيما بعد القوة الجبارة التى يعمل لها فرعون ألف حساب ...

يصير الإنسان الذى يصرخ أمامه فرعون و يقول أخطأت (خر٩ : ٢٧)، و يتضرع إليه أكثر من مرة أن يصلى من أجله، ليرفع الرب عنه الضربات.

من كان يظن أن الطفل الصغير الملقى فى الماء، يصبح مصيره هكذا؟ ولكنها يد الله حينما تتدخل فى الأحداث، وتدبر مصائر الناس... إنه الله الذى قال له أيوب الصديق «علمت أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر».

قصة الطفل موسى تعطينا درساً فى الرجاء، أن الله يستطيع أن يحول الضعف إلى قوة، و يغير المصائر حسبما يشاء...

حقاً إن الله يستطيع أن يعمل أعمالاً عجيبة لا تخطر على بال.

إننا ننظر إلى الحاضر فقط. وقد نرى فيه أموراً صعبة معقدة، تجلب الحزن أو اليأس. أو قد نرى مخاطر ليس من السهل الخروج منها... بينما يكون المستقبل، الذى يمسكه الرب فى يده، هو غير الذى نراه فى الحاضر، غيره تماماً، وربما عكسه تماماً.

ليتنا بدلاً من أن ننظر إلى الحاضر المتعب الذى أمامنا، ننظر بالرجاء إلى المستقبل المبهج الذى فى يد الله...

الأرض الخربة

★ هذا الرجاء وضعه الله أمامنا، منذ الآيات الأولى التى تتحدث عن قصة الخليقة، حيث يقول الوحى الإلهى:

«كانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة» (تك ١ : ٢).

إنها صورة كئيبة للطبيعة من أول القصة. ولكن ليس من الصالح أن نقف عند حدود هذه الصورة، فالقصة لم تتم فصولها...

فمع وجود هذه الصورة الكئيبة، كان هناك ما يبعث الرجاء... كانت هناك عبارة «وروح الله يرف على وجه المياه» وماذا أيضاً؟ «وقال الرب ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن» (تك ١).

وهكذا فتحت أمام الصورة الكئيبة المظلمة نافذة من نور .

وإذا كل شيء قد تغير.. وبدأت يد الله تعمل: تنظم هذه الطبيعة، وتنسقها، وتخلق فيها الحياة، وتضع لها النظم، وتلبسها ثوباً من الجمال والبهاء، وينظر الله إلى كل ما عمله، فاذا هو حسن جداً ...

من كان يظن أن الطبيعة الخربة، الخاوية، المغمورة بالمياه، المغطاة بالظلمة، تتحول إلى هذا الجمال الذى نعيش فيه، الأشجار والأزهار والأثمار، والبحار والأنهار، والطيور والفراشات ذات الألوان، وجمال السماء والقمر والنجوم، والجبال والتلال والبحيرات، جمال يتغنى به الشعراء، ويبدع فى رسمه الفنانون.

إن قصة الطبيعة فى نشأتها ، فيها رمز ، وفيها رجاء .

إنها رمز لكل حياة خربة وخالية ومظلمة، وتنتظر فى رجاء قول الرب «ليكن نور»... تنتظر يد الله فى الأيام الستة... حتى تتكامل صورتها، وتنتهى إلى عبارة «حسن جداً» ...

فلا تقف يا أخى عند عبارة «خربة وخالية» وتكتئب.. إنما تطلع إلى المستقبل فى رجاء، وانتظر الرب... وفى كل يوم يمر عليك. كلما يقول الوحى الإلهى «وكان مساء وكان صباح»، اهتف من كل قلبك «يا جميع الأمم صفقوا بأيديكم. هللوا لله بصوت الابتهاج» (مز٤٦: ١)، قد علمت يارب أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر...

الله قادر أن يغير كل شيء ... إلى أفضل ، وإلى العكس .

وليس المهم عنده البدايات ، إنما ما تنتهي إليه الأمور .

العاقر

من الآيات الجميلة فى الرجاء، نشيد العاقر فى سفر اشعياء:

«ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد. أشيدى بالترنم. لأن بنى المستوحشة (التى ليس

لها زوج) أكثر من بنى ذات البعل... أوسعى مكان خيمتك، ولتبسط شقق مساكنك... لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار. و يرث نسلك أمماً، و يعمر مدناً خربة. لا تخافى لأنك لا تخزين» (اش ٥٤ : ١ - ٤).

هناك إذن رجاء للعاقر، ليس فقط أن تلد، إنما بالأكثر أن يرث نسلها مدناً.

هذه العاقر ترمز إلى الأمم الذين كانوا غرباء عن الله، مستوحشين.

وترمز إلى كل نفس خاطئة بعيدة عن شركة الروح وثمار الروح. هذه لم يعطها الرب مجرد رجاء أن يكون لها نسل وثمر... إنما قال لها بالأكثر «وسعى خيامك.. ستمتدين يميناً و يساراً».

ليس فقط يكون لك صبر ورجاء، إنما ترنمى.

افرحى بالرجاء. ليس بعقمك، إنما بالوعد الذى سيتحقق.

حقاً يارب أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر.

قصص معونة

★ من كان يظن أن داود الطفل سينتصر على جليات الجبار؟

ولكن داود كان عنده الرجاء، الذى به قال لجليات: اليوم يحبسك الرب فى يدى..» (١صم ١٧ : ٤٦).

ولولا هذا الرجاء ما تقدم داود فى ثقة لمحاربته. ولم يخف مطلقاً، بينما كان الجيش كله خائفاً.

* * *

وبالرجاء دخل مارمرقس كارزاً فى مصر.

لم يكن له فيها شعب ولا كنيسة. وكانت هناك العبادات الفرعونية، واليونانية، والرومانية، والديانة اليهودية، والفلسفة الوثنية، ومدرسة الاسكندرية. وسيف الدولة

الرومانية الحاكمة، ودسائس اليهود...

من كان يظن أن مرقس الشاب، ينتصر على كل المعوقات، وينشر الإيمان فى كل مصر؟ حقاً إن الله يستطيع كل شىء، ولا يعسر عليه أمر. ويعجبنى هنا قول الكتاب:

من أنت أيها الجبل العظيم؟ أمام زربابل تصير سهلاً (زك ٣ : ٧).

* * *

حقاً، إننا بالرجاء نرى كل شىء سهلاً.

بالرجاء، نرى طريقاً مفتوحاً لنا داخل البحر. ونسمع قول موسى النبى: الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون (خر ١٤ : ١٤).

بالرجاء نثق أن عصا اليشع، إن وضعت على الغلام سيقوم.

بالرجاء نثق أننا سندخل الأرض، حتى إن تهنا فى البرية أربعين عاماً.

بالرجاء صلى يونان وهو فى بطن الحوت. كان له رجاء أنه سيخرج ويعود يرى هيكل الله مرة أخرى (يون ٢ : ٤).

* * *

بالرجاء بطرس لم ييأس بعد إنكاره.

كان له رجاء أن الرب سيغفر، ويقبله كما كان رسولاً...

حقاً من كان يظن أن هذا الذى خاف، وانكر الرب أمام جارية، سيمكنه أن يقف أمام رؤساء الكهنة، ويقول لهم فى شجاعة «ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس» (أع ٥ : ٢٩). ويحتمل من أجل الرب، ويكرز ويموت شهيداً.

* * *

إن قصص كرازة الرسل - يعطينا دروساً فى الرجاء.

اختار الله جهال العالم ليخزى بهم الحكماء (١كو ١ : ٢٧).

وهذه الفئة القليلة الضيئلة، استطاعت أن تقف أمام جبروت الدولة الرومانية ودسائس اليهود. والذين لا قول لهم ولا كلام، إلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم (مز ١٩ : ٣، ٤). وفى حوالى ٣٤ عاماً، استطاعوا أن ينشروا المسيحية فى كل الشرق

الأوسط ، ومصر، وتركيا ، واليونان ، ورومه ، وبقاع كثيرة فى أوروبا وآسيا وأفريقيا ...

ألا يعطينا هذا رجاء فى عمل الله فينا لأجل ملكوته .

* * *

من كان يظن أن نحميا الأسير ، يأخذ معونة يعيد بها بناء سور أورشليم ؟

ولكن الله لا يعسر عليه أى أمر .

حتى إن القى دانيال فى جب الأسود ، يمكن أن يرسل الله ملاكه فيسد أفواه الأسود (دا٦ : ٢٢) ... حتى إن ألقى الفتية فى أتون النار، لا يصيبهم ضرر، و يتمشى الرب معهم وسط النار (دا٣ : ٢٥) ... حتى إن ألقى يوسف فى السجن ، يخرج منه للحكم .

* * *

من كان يظن أن شاول الطرسوسى مضطهد الكنيسة ، يتحول إلى أكبر كارز بالمسيحية ، ويتعب أكثر من جميع الرسل (١كو١٥ : ١٠) .

ومن كان يظن أن أريانوس والى أنصنا ، أقسى ولاة ديوقلديانوس وأعنفهم فى تعذيب الشهداء، يؤمن أخيراً و يصير شهيداً ... وكذلك لونجينوس الجندى الذى طعن المسيح بالحربة ....

علمت يارب أنك تستطيع كل شيء ، ولا يعسر عليك أمر ....

حقاً ، إنه من أعظم معجزات الرب ، قدرته على تغيير النفوس .

* * *

إن قصص التوبة تعطينا رجاء عجيباً . وهى كثيرة جداً .

من كان يظن أن مريم المجدلية التى أخرج الرب منها سبعة شياطين (لو٨ : ٤) ، تصير مبشرة للرسل بالقيامة ؟

من كان يظن أن مريم القبطية الزانية تصير من السوّاح ؟ ونفس الأسلوب نتحدث به عن أوغسطينيوس وموسى الأسود وغيرهما .

* * *

كل شئ مستطاع

كون أن الله يستطيع كل شيء (مت ١٩ : ٢٦)، هذا أمر طبيعى...

ولكن هوذا بولس الرسول يقول «استطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى» (فى ٤ : ١٣). ولكن أكبر آية تدعو إلى الرجاء هى :

« كل شيء مستطاع للمؤمن » (مر ٩ : ٢٣) .

بهذا الرجاء ننال قوة ننتصر بها فى حياتنا .

أما الشيطان فطريقته أن يدفع الناس إلى اليأس، وإلى الخوف، والتردد، والشعور بالضعف والعجز، لكى يشل حركتهم... و يشدهم بثقل الصليب، ويخيفهم من الباب الضيق والطريق الكرب، حتى ما يستطيعون التقدم خطوة واحدة. أما أنت فقل مع بولس الرسول :

استطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى .

الذى حوّل الطرسوسى يستطيع أن يحولنى. والذى منح التوبة لاوغسطينوس يمكنه أن يتوبنى. والذى أعان داود على جليات يمكنه أن يعيننى. والذى قبل المزدرى وغير الموجود يقبلنى.

الرجاء يعطى قوة على العمل، وعدم التفكير فى الفشل .

إننا لا نعترف بالفشل إطلاقاً، مادامت يد الله معنا .

كل شيء يدعو لليأس، نضع أمامه قوة الله غير المحدودة، وتدخل الله بكل محبته لتغيير الأمور إلى أفضل..

ما أكثر قول الله : لا تخف . لا تخافوا ...

إنه لم يسمح لموسى أن يخاف من ملاقاة فرعون (خر ٤). ولم يسمح لأرميا أن يخاف لصغر سنه. وقال ليشوع بن نون بعد موت موسى النبى «لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك... لا أهملك ولا أتركك. تشدد وتشجع... لا ترهب ولا

ترتعب ، لأن الرب إلهك معك» (يش ١ : ٥ ، ٩)... إن إيمانك بعمل الله معك يعطيك رجاء ثم انظر إلى هذا الوعد العجيب جداً ، فى قول الرب :

«من يؤمن بى ، فالأعمال التى أنا أعملها ، يعملها هو أيضاً ، و يعمل أعظم منها» (يو ١٤ : ١٢) .

من نحن يارب أمام هذا الوعد ؟ إنه أكبر منا . ولكن عجيبة هى محبتك ووعودك . ولكننا نؤمن بمحبتك و بكرمك فى العطاء ، وتدخلك للمعونة ونؤمن أيضاً بأن الحرب للرب (١صم ١٧ : ٤٧) ، والله ليس لديه مانع أن يخلص بالكثير أو بالقليل (١صم ١٤ : ٦) .

الله قادر أن يغلب بجيش يشوع .
وقادر أيضاً أن يغلب بحصاة داود .

مهما كنت ضعيفاً أو صغيراً ، الله قادر أن يعمل بك وفيك ، كما عمل فى ارميا الطفل ، وداود الصبى . واستخدم صموئيل الطفل ليبكت به عالى الكاهن العظيم (١صم ٣ : ١٠- ١٨) .

مادامت الحرب للرب ، اعتمد عليه اذن ، وليكن رجاؤك فيه ، مهما وقفت ضدك خطية أو شهوة ، تجربة أو مشكلة . ومهما وقف ضدك الناس الأشرار .

وتذكر قصص رجال الله ، الذين تقووا من ضعف (عب ١١ : ٣٣ ، ٣٤) وصاروا اشداء فى الحرب ، وقهروا ممالك ...

هؤلاء هم جبابرة ، الذين لا يخافون .

لا تضعف . لا تهزك التجارب ولا الضيقات ، ولا الخطايا ولا الشهوات ، ولا الأعداء . كن كالبيت المبنى على الصخر ، الذى لم تقو عليه الأمطار ولا الرياح (مت ٢٧ : ٢٥) . كن كالجنادل التى فى مجرى النيل ، ثابتة لا تقوى عليها المياه .

ضع أمامك بعض الآيات التى تعزيك وتقويك .

« إن سرت فى وادى ظل الموت ، لا أخاف شراً لأنك أنت معى» (مز ٢٣ : ٤)

«إن يحاربني جيش فلن يخاف قلبي. وإن قام عليّ قتال، ففي هذا أنا مطمئن (مز٢٧: ٣) «مراراً كثيرة حاربوني منذ صباي، وأنهم لم يقدروا عليَّ... الرب صديق هو يقطع أعناق الخطاة» (مز١٢٩: ٢، ٤). «الفخ انكسر ونحن نجونا. عوننا من عند الرب...» (مز١٢٤: ٧، ٨) «دفعت لأسقط والرب عضدني. قوتي من عند الرب» (مز١١٧).

تذكر سير القديسين الذين لم يخافوا مطلقاً، ولم يفشلوا ...

الفصل الخامس عشر

أبصرت
باباً مفتوحاً
في السماء

قال هذه العبارة وهو فى منفاه فى جزيرة بطمس ، وفى سفر الرؤيا الذى يقول فى أوله «أنا يوحنا أخوكم وشريككم فى الضيقة، وفى ملكوت يسوع المسيح وصبره ...» (رؤ ١ : ٩).

وعلى الرغم من أنه كان بعيداً عن كل التعزيات والمعونات البشرية، إلا أن التعزيات الإلهية لم تبتعد عنه. فرأى السيد فى تلك الجزيرة، وتسلم منه رسائل. ثم يقول بعد تلك الرؤيا :

« بعد هذا أبصرت ، وإذا باب مفتوح فى السماء ... وإذا عرش موضوع فى السماء ...» (رؤ ٤ : ١ ، ٢). إنها تعزية عجيبة لهذا الرسول العظيم، وهو فى ضيقته وفى منفاه، تذكرنا بقول الرب لملاك كنيسة فيلادلفيا :

هأنذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً، ولا يستطيع أحد أن يغلقه» (رؤ٣ : ٨).

إنها كلمة من الله الذى يفتح ولا أحد يغلق ، و يغلق ولا أحد يفتح » (رؤ٣ : ٧).

كلمة عزاء ، كلما نتذكرها نمتلىء بالرجاء ، ونجد فرحاً بهذا الباب المفتوح فى السماء.

* * *

حقاً حينما تنغلق جميع الأبواب ، يبقى باب الله مفتوحاً ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه ...

وهكذا يطمئن الإنسان مهما كانت جميع الأبواب مغلقة فى وجهه. فالله الحنون المحب يمكنه أن يفتح ، ولا أحد يغلق ... من أجل هذا يعيش أولاد الله فى فرح كامل ، لا تهتز ثقتهم بأية ظروف خارجية ضاغطة ...

ويقدم لنا الكتاب مثال داود النبى، وهو مطارد من شاول الملك:

شاول بكل سلطانه، وكل قسوته، وكل حيله، وكل كراهيته لداود، كان يطارده من برية إلى أخرى، ومن مغارة إلى أخرى، يريد قتله، ويحيك حوله المؤامرات. ومع ذلك حفظ الرب داود، وبقى حياً. ومات شاول الملك دون أن يؤذيه.

وكذلك لم يقدر على إيذائه أبشالوم بكل خيانته ...

ذلك لأن الله كان قد جعل أمام داود باباً مفتوحاً، دخل منه إلى المجد، متذكراً خبراته الكثيرة فى قيام الأعداء ضده، حتى أنه قال ذات مرة «يارب لماذا كثر الذين يحزنوننى... كثيرون قاموا علىّ. كثيرون يقولون لنفسى: ليس له خلاص بإلهه (مز٣). بل أنه قال: «**أكثر من شعر رأسى، الذين يبغضوننى بلا سبب**» **(مز٦٩: ٤).**

ونحن نسأل «وماذا فعلت أمام كل أولئك يا داود؟ وهل حطموا حياتك؟!» يجيب «الرب هو ناصرى. مجدى ورافع رأسى. بصوتى إلى الرب صرخت، فاستجاب لى من جبل قدسه» (مز٣) «نظرت، وإذا باب مفتوح فى السماء».

هؤلاء الكثيرون الذين قاموا على داود، لم يستطيعوا أن يغلقوا هذا الباب المفتوح أمامه من الرب. ألست تستطيع أن تخرج من هذه القصة بقاعدة روحية وهى:

* * *

إن حياتك هى فى يد الله. وليست فى أيدى الناس ...

لقد قال عيسو «أقوم وأقتل يعقوب أخى» (تك٢٧: ٤١). ولكنه لم يستطع لأن يعقوب أبصر، وإذا باب مفتوح فى السماء. وقد رأى سلماً بين الأرض والسماء، وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها (تك٢٨: ١٢). من أجل هذا حدث أنه فى رجوعه «ركض عيسو للقائه، وعانقه، ووقع على عنقه وقبله، وبكيا» (تك٣٣: ٤).

حقاً إن الله يستطيع أن يغير المواقف، ويغير القلوب.

وكما قال الكتاب «إذا ارضت الرب طرق إنسان، جعل أعداءه أيضاً يسالمونه»

(أم١٦ : ٧) . وحتى إن لم يسالموه ، فلن يقدروا عليه ، كما قال الرب لأرمياء النبى « يحاربونك ولا يقدرون عليك ، لأنى أنا معك ، لأنقذك » (أر١ : ١٩) .

ما أكثر الذين قاموا على رسل المسيح وتلاميذه !

قام ضدهم الكتبة والفريسيون والصدوقيون ، وكهنة اليهود ورؤساء كهنتهم وشيوخ الشعب ، وولاة الرومان وحكامهم ... وألقوهم فى السجون ، وجلدوهم . ولكن الله كان قد جعل أمامهم باباً مفتوحاً ، فانتشرت الكرازة فى كل مكان . و« الذين ليس لهم صوت ولا كلام ، إلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم » (مز١٩ : ٣، ٤) ، حتى « الذين تشتتوا ، جالوا مبشرين بالكلمة » (أع٨ : ٤) .

كانت كل الأبواب مغلقة أمامهم . ولكن باب الله كان مفتوحاً . وهذا يكفى . لذلك نصيحتى أقولها لكل إنسان تواجهه متاعب وضيقات وتعقيدات .

* * *

لا تنظر إلى الأبواب المغلقة ، إنما أنظر إلى المفتاح الذى فى يد الله .

إنه يستطيع أن « يفتح ولا أحد يغلق » . هو القادر على كل شىء ، وهو الذى يحبك ويحب لك الخير . كل الذين يقومون ضدك ، قوتهم محدودة كبشر . حتى الشيطان أيضاً ، قوته محدودة كمخلوق . أما الله فغير محدود ، وقوته غير محدودة .

لذلك فإن الله غير المحدود ، قال لبولس الرسول « تكفيك نعمتى » (٢كو١٢ : ٩) .

إنها نعمة الله القادرة أن تفتح لك فى البحر طريقاً (خر١٤) وتفجر لك من الصخرة ماء (خر١٧ : ٦) ، وتهدم أمامك جبالاً . كما قال الرب عن معونته لعبده زربابل « من أنت أيها الجبل العظيم . أمام زربابل تصير سهلاً » (زك٤ : ٧) .

* * *

يعوزنا الوقت إن تحدثنا عن قصص القديسين مع باب الله المفتوح :

هل أتحدث عن القديس أثناسيوس الرسولى ، الذى قيل له « العالم كله ضدك يا أثناسيوس » ومع ذلك وقف ضد العالم الهرطوقى وانتصر ، لأن الرب جعل أمامه باباً مفتوحاً .

أم اتحدث عن نحميا ، الذى فتح الله له باباً عجيباً ، فإذا بملك أممى يزوده بكل الامكانيات ليعيد بناء أورشليم ، و يتحول من إنسان فى السبى ، إلى حاكم فى مدينة الله ...

أم أتحدث عن لعازر الدمشقى ، وكيف أرشده الرب إلى رفقة . ليختارها زوجة لأسحق إبن سيده ، بارشاد إلهى عجيب !! حتى قال «لا تعوقونى والرب قد انجح طريقى» (تك ٢٤ : ٥٦) .

* * *

كذلك ما أكثر الأبواب المفتوحة للتوبة ...

من كان يظن أنه سينفتح باب للتوبة أمام مريم القبطية التى أعثرت المئات وأسقطتهم . ولكن الله فتح أمامها باباً بمعجزة ، لمست فيها يد الرب وتابت ...

ومن كان يظن أنه سينفتح باب أمام أوغسطينوس و بيلاجية وموسى الأسود ، بعد أن وصلت حال كل منهم إلى وضع سىء للغاية فى البعد عن الله ...

وهكذا أيضاً شاول الطرسوسى مضطهد الكنيسة .

من كان يظن أنه سيتحول إلى رسول وإناء مختار للرب ، هذا الذى كان ينفث تهديداً ، و يجر رجالاً ونساءً إلى السجن (أع ٩ : ١ ، ٢) . وإذا باب فى السماء ينفتح أمامه وهو فى الطريق إلى دمشق ، برؤيا عجيبة ، كلمه فيها الرب ، فآمن وتحول إلى العكس ، وتعب أكثر من جميع الرسل ، ونال اكليل الشهادة ...

كذلك الأمم فتح لهم الله باباً للتوبة والقبول ...

وكانوا معتبرين غرباء ، أجانب عن رعوية الله ، فصاروا هم الزيتونة الجديدة التى طعمت فى الزيتونة العتيقة . وأصبحت الغالبية العظمى من المؤمنين نابعة من هؤلاء الأمم وانفتح الباب بمعجزة أمام كرنيليوس (أع ١٠) ثم أمام الكل (أع ١٥) .

* * *

ماذا أقول عن أمثلة عجيبة امتدحها الكتاب :

أرملة صرفة صيدا التى أطعمت إيليا ، والمرأة الكنعانية التى شفى السيد المسيح

إبنتها ، وراحاب الزانية ، وراعوث ، وملكة سبأ التى جاءت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان... كل أولئك اللائى تسجلت أسماؤهن فى التاريخ ، وطوبهن الكتاب ، لمجرد أن الله جعل أمام كل واحدة باباً مفتوحاً .

بل ماذا أقول عن يونان النبى الذى إبتلعه حوت ؟!

من كان يظن أن مثل هذا يمكنه أن يخرج من جوف الحوت ، ويحيا ، و يبشر نينوى ، وتؤمن على يديه ؟! ولكن الحل الوحيد أن الله قد جعل أمامه باباً مفتوحاً ، ففتح الحوت فاه ، وألقاه إلى البر ، ليؤدى رسالته !! حقاً كما يقول الكتاب :

« غير المستطاع عند الناس ، مستطاع عند الله » (لو ١٨ : ٢٧) .

إن الله قادر على كل شيء . وإن اعتمدت عليه تحيا فى رجاء ثابت لا يتزعزع . هو قادر أن يفتح الأبواب المغلقة ، ويحل كل المشاكل المعقدة . بيده كل المفاتيح ، « يفتح ولا أحد يغلق » وهناك مثل عجيب لباب مغلق فتحه الله :

لقد فتح الرب باب الفردوس بعد آلاف السنين ...

وهكذا أدخل فيه آدم وحواء ، بعد أن طردا قديماً من الجنة ، وأدخل فيه كل الراقدين على الرجاء ، وجعل هذا الباب مفتوحاً أيضاً أمام اللص اليمين ، وأمام جميع التائبين ، لكى يصيروا جميعاً فرحين فى الرجاء (رو١٢ : ١٢) .

★ ★ ★

لكل هذا ، اطلب من الرب أن يفتح أمامك الأبواب :

قبل أن تخرج من بيتك كل يوم ، اطلب من الرب أن يفتح أمامك كل القلوب ، وكل الآذان ، وأن يفتح أمامك أبواب الرزق وأبواب الخير . وما أجمل تلك الصلاة التى يصليها الآب الكاهن أمام الهيكل و يقول :

« أجعل باب بيتك مفتوحاً أمامنا فى كل زمان ... »

و يقول أيضاً « **لا تغلق باب بيتك فى وجوهنا** » .

بل فى كل يوم يصلى كل منا و يقول « **افتح يارب شفتى ، فيخبر فمى**

بتسبحتك » (مز ٥٠) . ذلك لأننا لا نضمن إن فتحنا أفواهنا من ذواتنا ، أى كلام سنقوله ؟ وهل سيكون مرضياً أمام الله أم لا يكون ؟ وماذا ستكون نتائجه ؟ ...

ولعل من الصلوات العجيبة التى صلاها أليشع النبى لأجل تلميذه جيحزى هى قوله :

« افتح يارب عينى الغلام فيرى » ... (٢مل ٦ : ١٧) .

فيرى أن الذين معنا أكثر من الذين علينا ، فيطمئن ، و يؤمن . نعم نحن لنا عيون ولكنها لا تبصر، وآذان ولكنها لا تسمع ... ونحتاج أن يفتح الرب عيوننا وآذاننا وقلوبنا أيضاً .. ألسنا نقول فى صلواتنا « اكشف عن عينى فأرى عجائب من ناموسك » (مز ١١٩) .

و بعد ، أترانا قلنا كل ما يفتحه الله أمامنا ؟ كلا ، بلاشك ... فالموضوع أطول من أن يسعه مقال ، عن الله الذى قال :

افتح لكم كوى السماء ، وأفيض عليكم بركة ، حتى لا توسع » .

* * *

باب الله مفتوح أمامنا على الدوام ، مهما أغلقت باقى الأ بواب .

يقول لنا كما قال لملاك كنيسة فيلادلفيا « هأنذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه » (رؤ٣ : ٨) . هذا هو قلب الله الحنون ، الذى ازال الحجاب الحاجز، وفتح الطريق إلى قدس الأقداس ، وفتح باب الفردوس أمام آدم و بنيه .

* * *

إنها عبارة معزية ،نتذكرها فى بدء العام الجديد .

مهما ضاقت الدنيا أمامك ، ومهما تعقدت السبل ، وأغلق الناس قلوبهم وأحشاءهم ، ودعوت وليس من مجيب ، و بحثت وليس من صديق ، حينئذ تتعزى بقول القديس يوحنا الحبيب ، « نظرت وإذا باب مفتوح فى السماء » .

يقولها لكل من فى ضيقة ،ولكل خاطىء أتعبته الخطية .

لكل خاطىء سيطرت الخطية عليه ... حاول أن يتخلص منها مراراً ولم يستطع ، وكاد ييأس ... طرق باب التداريب الروحية ، وكل جهاد شخصى . وطرق أبواب الصوم وضبط النفس ... ولم يجد طريق التوبة مفتوحاً أمامه ... حينئذ يرفع هذا الخاطىء نظره إلى فوق ، و يقول « رأيت باباً مفتوحاً فى السماء » ، « عونى من عند الرب الذى صنع السماء والأرض » (مز ١٢١ : ٢) .

* * *

المهم فى مشاكلنا أن نرفع نظرنا إلى فوق ، إلى السماء لكى نرى الباب المفتوح ، فنتعزى ...

مشكلتنا أننا فى كل ضيقاتنا ، نتجه إلى المعونة الأرضية ! نتجه إلى ذكائنا وحيلنا ، وإلى الذراع البشرى فى مساعدة الناس لنا . نتجه إلى الظروف والامكانيات . و بسبب هذا نقع فى الحيرة والقلق والاضطراب . ولكن كل هذا يزول ، ونطمئن ، إن رفعنا نظرنا إلى فوق ، لنرى الباب المفتوح فى السماء ، كما فعل القديس يوحنا الحبيب ، شريكنا فى الضيقة ...

* * *

لاحظوا أنه رأى هذا الباب المفتوح ، دون أن يطلب .

لم ينفتح هذا الباب بصلواته ، إنما هو باب مفتوح بطبيعته مفتوح بالحب الإلهى ...

لم يقل يوحنا « افتح لى باباً فى السماء ، لأرى عرشك وجندك . إنما أراه الله كل هذا من حنانه ، لكى يعرف أن عطايا الله إنما تنبع من محبته ومن أنعامه ... حقاً إنه يقول بالنسبة إلى التعابى « اقرعوا يفتح لكم » . لكنه يقول للذين يحيون فى الإيمان « وكل هذه تزدادونها » (متى ٦ : ٣٣) . تأتيكم بدون طلب ، من الآب السماوى الذى يحب أولاده و يعرف أحتياجاتهم ...

* * *

هذا الباب يفتحه الله ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه .

حسب وعده الأمين ... ذلك لأنه « يفتح ولا أحد يغلق » (رؤ ٣ : ٧) . فإن فتح

أمامك باباً ، تجد كل أمورك ميسرة ، « لا يقف أحد فى وجهك » (يش ١ : ٥) . « ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) . وأبواب الجحيم لن تقوى عليك (متى ١٦ : ١٨) .

إذن لا تضيع وقتك منقباً فى الأرض ، تحفر لك آباراً مشققة لا تضبط ماء (ار ٢ : ١٣) . إنما يكفى أن تضمن المعونة الإلهية ، تضمن الباب السماوى المفتوح ، وحينئذ يصير لك كل شيء ...

* * *

هذا الباب المفتوح رآه يوحنا وهو فى ضيقة منفياً فى جزيرة بطمس ، ومضطهداً لأجل الكلمة .

فى وقت لم يكن يجد فيه على الأرض حناناً ولا عدلاً ، ولم يجد من البشر معونة ولا سنداً ... حينما بدا أن كل إنسان قد تخلى عنه ، أو عجز عن معونته ، فترك إلى أعدائه يحكمون عليه ... فى هذا الوقت الذى أغلقت فيه أبواب الأرض ، نظر وإذا باب مفتوح فى السماء ، وسمع صوتاً يقول له « اصعد إلى ههنا فأريك ... » وأراه عرش الله فى الرؤيا ، وقوات السماء ...

عجيب هو الله حقاً فى عمق عطاياه ، الله المقيم المسكين من التراب (مز ١١٣ : ٧) .

ولعل القديس يوحنا كان يقول للرب : من أنا يارب الذى تصنع معى كل هذا ، أنا البائس الملقى فى هذه الجزيرة النائية ، أنا غير المستحق أن أرى عرش الأمبراطور تراجان ، كيف استحق أن أرى عرش ملك الملوك ورب الأرباب ؟! . نعم تعال يا يوحنا واصعد لترى هذا العرش ، لكى تعرف أن كل أباطرة الأرض هم حفنة من تراب ... ! ويقف أمامنا سؤال :

كيف صعد يوحنا إلى السماء ، ليرى هذه الرؤيا ؟

هنا تقف اللغة عاجزة ... نعم كيف صعد ؟ أنا لست بمستطيع أن أجيب ... أفضل أجابة هى أن أقول : لا أعرف ... لست أجد ألفاظاً فى اللغة العربية ، ولا فى أية لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن هذا المعنى ... لذلك اكتفى بأن أتركه إلى تأملاتكم الخاصة .

« **اصعد إلى هنا** » . هذا أمر . كيف نفذه يوحنا ؟ أو كيف نفذ فى يوحنا ؟ كيف صعد إلى السماء ؟ وكيف دخل من هذا الباب المفتوح ؟ وكيف رأى ؟ بالعين أم بالروح أم بعين روحية ؟ وكيف ؟ ... المهم أن الله حول ضيقته إلى فرح ، وجهله إلى معرفة، ونفيه إلى ترقية وإنعام، وأعطانا عربوناً لحياة أخرى ستكون بعد القيامة ، ومنحنا نحن رجاء فى تلك الحياة ...

كل هذا حدث ليوحنا ، وهو فى المنفى ...

لم تحدث هذه الرؤيا وهو فى أورشليم ، مدينة الملك العظيم ، ولا وهو فى الهيكل ولا حتى فى قدس الأقداس ، ولا إلى جوار تابوت العهد ليس فى كل تلك الأماكن العظيمة والمقدسة ، حيث ينتظر الإنسان أن يرى رؤى ... ، إنما فى الضيقة ، وفى النفى ...

* * *

حقاً ، إن ملكوت الله لا يأتى بمراقبة (لو ١٧ : ٢٠) .

إننا لا نعرف متى ولا أين يفتقدنا الله بنعمته ، بعمل روحه القدوس . لا نعرف متى تفتح السماء أبوابها ؟ ومتى يأتينا الصوت كبوق ، أو كريح عاصف ، أو كصوت مياه كثيرة ...؟ إنه لا يأتى بانتظارنا أو توقعنا ، أو مراقبتنا ... لسنا نعرف متى يأتى الرب لمعونتنا ، ومتى يعلن لنا .

المهم أن نكون مستعدين لعمل الروح فينا ...

نفتح نحن قلوبنا ، فيفتح لنا الرب باباً فى السماء .

نصعد بأرواحنا إلى السماء ، بينما أجسادنا لا تزال على الأرض ، حينئذ يصعدنا الرب إلى السماء ، حتى لو بقينا ظاهرياً على الأرض ... « فى الجسد أم خارج الجسد ؟ لست أعلم . الله وحده يعلم » (٢كو١٢ : ٣) . هنا ونقول أن رؤيا يوحنا تحمل لنا أعظم رجاء مفرح ، وهو:

* * *

أن أبواب السماء صارت مفتوحة . وقد رآها القديس اسطفانوس الشماس من قبل :

وذلك حينما حنق عليه اليهود ليقتلوه . يقول الكتاب : «أما هو فشخص إلى السماء ، وهو ممتلىء من الروح القدس . فرأى مجد الله والرب يسوع عن يمين الله ، فقال : ها أنا انظر السموات مفتوحة ، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله » (أع ٧ : ٥٥ ، ٥٦) .

هذه السماء المفتوحة أمامنا هى أملنا الكبير الذى نسعى إليه لكى نرى فيها مجد الله ونبصر الرب يسوع .

رآها اسطفانوس أول الشمامسة ، ورآها يوحنا الحبيب ، مفتوحة . وأبصرا شيئاً من المجد العتيد ، كعربون للملكوت الأبدى ... والعجيب أن كلاً منهما قد رآها وهو فى ألم واضطهاد ، مرذولاً من الناس ، أحدهما فى وقت رجمه ، والآخر أثناء نفيه ... وذلك لكى نفهم أن طريق هذه السماء هو الصليب ، وأنه « بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٤ : ٢٢) .

* * *

وقبل اسطفانوس و يوحنا ، أبصر السماء حزقيال النبى :

رأى عرش الله محمولاً على الكاروبيم (حز ١) . ورأى هذا المنظر حينما كان ضمن المسبيين ، عند نهر خابور . وقال فى ذلك « كان ... وأنا بين المسبيين عند نهر خابور . أن السموات انفتحت . فرأيت رؤى الله ... » وشرح ما رآه ، ... ثم قال « هذا منظر شبه مجد الرب . ولما رأيته خررت على وجهى وسمعت صوت متكلم ... » (حز ١ : ٢٨) . عجيب أن يرى هذه الرؤيا وهو فى السبى ... كيوحنا فى النفى .

بنفس الوضع رأى دانيال النبى شبه المنظر وهو فى السبى :

رأى إبن الإنسان وهو على سحاب السماء ، أمام الآب ، وقد أعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً ، لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول ، وملكوته ما لا ينقرض (دا ٧ : ١٣ ، ١٤) . ورأى رؤى أخرى ، وأرسل له الله الملاك جبرائيل ليفسرها له (دا ٨ : ١٦) .

كل هذه الرؤى ، رآها انبياء وقديسون فى ضيقاتهم .

سماء الله وعرشه رآهما يوحنا فى النفى ، اسطفانوس قبل رجمه . وحزقيال ودانيال

وهما فى السبى. ولاشك أن هذه المناظر التى يسمح الله لقديسيه أن يروها أثناء ضيقاتهم لأجل إسمه، إنما هى لون من العزاء الإلهى أثناء الآلام...

* * *

وأنتم أيها الأخوة، هل رأيتم هذه السموات المفتوحة؟ أم أن لكم عيوناً ولكنها لا تبصر؟

وإن كان كذلك، فمتى تنقشع تلك الغشاوة عن أعيننا، حتى نرى ما يمكن أن يراه الروحانيون... كاشخاص فى الجسد، نحن لا نرى، ولكن متى صرنا فى الروح، مثلما كان يوحنا «فى الروح فى يوم الرب» (رؤ ١ : ١٠)، حينئذ سنرى.

طالما عيوننا مشغولة بالجسد وبالمادة وبالعالم، ومغلقة بالهيولانيات، فلا يمكن أن ترى الروحيات.

السماء المفتوحة رآها القديسون فى ضيقاتهم، أما المترفون الذين يعيشون فى المتعة والفرح واللذة، فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى باب مفتوح فى السماء! وإن طلبوا من الله، فسيقولون: افتح لنا أبواباً على الأرض، فالسماء لم يأت موعدها بعد... افتح لنا أبواب الكنوز والرزق والترقيات. هؤلاء المترفون، أخشى أنهم فى السماء أيضاً سيسمعون تلك العبارة المخيفة «الحق أقول لكم إنكم قد استوفيتم أجركم» (متى ٦ : ٥).

ومثل المترفين، كذلك لا يطلب المنشغلون باباً فى السماء.

إن كل تفكيرهم مركز فى العالم وفى الأرضيات. ليس لديهم وقت ولا رغبة لكى يرفعوا نظرهم إلى فوق. مثالهم ذلك الغنى الغبى، الذى قال «أهدم مخازنى، وأبنى أعظم منها، وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى، وأقول لنفسى: يا نفسى لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة. فاستريحى وكلى واشربى وافرحى» (لو١٢: ١٨، ١٩).

* * *

إذن علينا أن نرتفع فوق الأرضيات، لنرى الباب السماوى المفتوح...

مثال ذلك : فلك نوح الذى تغرب عن العالم ، وارتفع فوق المياه التى غطت كل شىء . وفتح أبونا نوح فيه طاقة ، تشبه الباب المفتوح فى السماء . وخرجت من الطاقة حمامة جاءت بغصن زيتون ، رمزاً للسلام الإلهى فى الأرض الجديدة التى باركها الرب ...

إن لم تستطع أن ترتفع فوق الأرضيات بصفة دائمة ، فليكن ذلك على الأقل فى فترات ، كيوم الرب .

لقد منحك الرب هذا اليوم ، ليكون لك معه ، تنحل فيه من الأرضيات ، لكى ترتبط بالواحد الذى هو الله : تفكر فيه ، تكلمه ، تستمع إلى صوته فى قلبك ، وقد تطهر ذهنك ـ ولو مؤقتاً ـ من كل ما هو مادى ... حينئذ ستبصر الباب .

فهـرسـت

صفحة

المقدمة ٥
الرجاء ٧
كل الأشياء تعمل معاً للخير ١٩
تعالوا إليّ يا جميع المتعبين ٣١
سعى الله لخلاصنا ٤١
اهتمام الله بالأشياء الصغيرة ٥٩
الله حنون وعطوف ٨١
احفظك حيثما تذهب ٨٩
دون أن نطلب ١٠٣
الله يعمل معنا ١٢١
انتظر الرب ١٢٩
شجعوا صغار النفوس ١٤١
الله الذى يبدأ ١٥١
نهاية أمر خير من بدايته ١٦١
لا يعسر عليك أمر ١٦٧
باب فى السماء ١٧٧
مؤلفات قداسة البابا شنوده ١٩٠
فهرست ١٩٢

في هذا الكتاب

بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

هذا الكتاب (حياة الرجاء) هو الجزء الثاني من مجموعة «الإيمان والرجاء والمحبة». وقد صدر الجزء الأول منها عن (حياة الإيمان).

تجد فيه ١٤ محاضرة عن الرجاء، اخترناها لك من بين محاضرات عديدة سبق ألقيناها في هذا الموضوع الهام. ونرجو إن أحب الرب وعشنا، أن ننشر الباقي في مناسبة مقبلة...

لا تدع الشيطان يحاربك في يوم ما بفقد الرجاء والدخول في اليأس. وتأكد أنه:

كل مشكلة لها حل أو حلول.

والله قادر على حل كل المشاكل، وعلى فتح كل باب مغلق...

ولكن الله معك في كل ضيقة، يقف إلى جوارك وينقذك...

البابا شنوده الثالث

الثمن ٢٠٠ قرشاً